أردنـا بمناسبة اليوبيـل الذهبـي لإنشـاء المعهـد المصـري للدراسـات الإسلامية ، وبعد خمسين عاما من الجهد الأمل الرامي إلى الحفاظ على واحد مـن أهم عمده ، مجلته الغراء ، تكريم هؤلاء الذين حولوا هذا الحلم الواعد إلـى واقـع ملموس.

وإيمانا منا بالدور الذي قامت وتقوم به مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية باعتبارها نقطة وصل وتواصل بين المشـتغلين بالدراسـات العربيـة مـن الإسبان والإسبانية من العرب ، نرى أنـه بـات علينـا أن نستغل معطيـات عصـر التكنولوجيا لتخليد شهادات وأبحاث ثقاة الفكر والقلم من العرب والإسبان المدونـة على ما يربو على ثلاثين ألف صفحة في ثلاثين مجلدا ، تراث ثرى غائر الأعمـاق من الإبداع والدرس والبحث فـي ثمـار واحـدة مـن أهـم الحضـارات التـي ورثتهـا البشرية: الحضارة الإسبانية العربية ...

إن هذا القرص، الذي تحمله بين يديك أيها القارئ الكريم، الذي يضـم فـي ثنايا موجاته المغناطيسية كنزا تراكم على مر خمسين عامـا، يرنـو إلـى أن يكـون احتفاء بالمستقبل وبالأجيال الجديدة التي تواصل مهمة إثـراء هـذا الكنـز المعرفـي الذي نهديه لك ولأنفسنا ولكل المعنيين بالتراث العربي الأندلسي فـي هـذا القـرص الصغير في حجمه الكبير في معناه.

ولنا اغتنام هذه المناسبة لنعرب عن عميـق امتنانـا، وجزيـل شـكرنا لكـل من شاركنا وأسهم في هذا الجهد طوال السنوات الماضية .

أ.د محمود السيد على

المستشار الثقافي لجمهورية مصر العربية

مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية

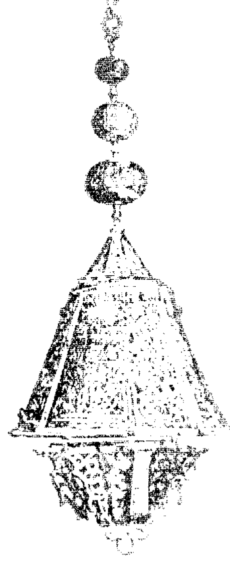
- مدريد في الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٩

جمهورية مصر العربية – وزارة التعليم العالى – الادارة العامة للتمثيل الثقافى

مجلة المعهد المصري

للدراسات الإسلامية في مدريد

مدن الأندلس : «**غرناطة**»



عدد خاص

١٩٩٦ ، الذكرى الأولى لعميد المستعربين الاسبان
الأستاذ اميليو جارثيا جومث

المجلد الثامن والعشرون مدريد ١٩٩٦

جمهورية مصر العربية – وزارة التعليم العالى – الادارة العامة للتمثيل الثقافى

مجلة المعهد المصرى

للدراسات الاسلامية فى مدريد

مدن الأندلس : «غرناطة»

يصدرها المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد
رئيس التحرير : مدير المعهد

المجلد الثامن والعشرون مدريد ١٩٩٦

العنوان : Francisco de Asís Méndez Casariego, 1.—28002 Madrid (España)

فهرس القسم العربي

صفحة

طبعت بمطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد
١٩٩٦

تقـــديم

هذا العدد من المجلة عدد خاص من نـاحيتين مهمتين يتميز بهما . النـاحية الأولى أنه فى تصورى بناء على تخطيط مرسوم يعد العدد الأول فى مرحلة جديدة تبذل المجلة فيها جهدها لاستكتاب البـاحثين والمتخصصين فقد اعتمدت المجلة لفترة طويلة على نشر خلاصة المؤتمرات التى يعقدها المعهد ، ففى نهاية عام ١٩٩١ على سبيل المثال تجمع لدى المعهد فى نهاية فترة ادارة أ. د. أحمد مرسى لتحرير المجلة أعمال ثلاثة مؤتمرات كانت مادة للأعداد ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، والتى صدرت فى الأعوام التالية . وفى حالات أخرى اعتمدت المجلة على استقبال أعمال كتـاب وباحثين متطوعين . والخطة التى تتبعها المجلة الآن هى محاولة وضع سياسة لفترة طويلة تتخصص فيها أعدادها فى موضوع معين . وقد كان الموضوع الأول هو المدن الأندلسية وقد بدأنا بمدينة غرناطة لسببين هو أن غرناطة احتفلت فى العام المنصرم بالذكرى المئوية للموسيقى العظيم الغرناطى (فايا) كما أنها السنة نفسها التى شهدت تنفيذ وصية المستشرق العظيم جارثيا جومث باختيار غرناطة كمقر أبدى له كآخر تعبير من ألف تعبير عن حبه لغرناطة وعشقه لمـا تعنيه هذه المدينة . أما الناحية الثانية فهى احتواء هذا العدد المخصص لغرناطة لمداخلات أسبوع التكريم الذى أقامه المعهد احتفالا بالذكرى السنوية الأولى لجارثيا جومث والتى حلت فى ٣١ مايو ١٩٩٦ وهذا الاحتواء اشبه باحتواء غرناطة الآن والى الأبد لشخص جارثيا جومث الذى غرب عن الدنيا ليظل مشرقا فى هذه المدينة . وتجدر الاشارة بأن اتجاه المجلة الحالى هو دفع الدراسات الأندلسية نحو الحاضر والمستقبل لكى تكون بذرة فى تربة خصبة دائمة الانبات والازهار والاثمار .

وقد طلبت المجلة ممن استكتبتهم ذلك ومع هذا فقد غلب على الكتابات الجانب الكلاسيكى الاندلسى لأنه الاتجاه الـدائم للمجلة منذ انشائها والذى لا يتخيـل كتاب المجلة خروجها عنه . ومع ذلك فقد ظهرت بعض المقالات وخاصة الاسبانية اللغة الى هذا الافق الجديد . ففى المقـال الذى قدمه فرناندو دى أجريدا بوريو يحدثنا فى دراسة مقـارنة طريفة عن غرنـاطة فى الشعر المراكشى المعـاصر كما يحدثنا عبد الله جبيلو عن غرناطة جنة الأدب وفى هذا المقـال يحدثنا عن شعائر حج الأدباء وخاصة شعراء الحداثة الى مدينة غرناطة يشدون اليها الرحال من أقصى الدنيا الى أدناها . ويركز على زيـارة روبين داريو شاعر الحداثة الأكبر لغرناطة الذى أعجب بطعمها العربى وبما تولده من احساس بالنعوسة الحالمة . أيضا يحدثنا عن علاقة لوركا بغرناطة باعتباره أحد أبنائها المحبين لها . انه مقال جميل يعيش الحاضر الخالد لغرناطة ، وحيث تعطى الحمراء لغرناطة طعما خاصا

فان هذه الأشعار تصنع غرناطة جديدة تغلف بطبقــات متزايدة يومــا بعد يوم غرناطة القديمة التى ينطبق عليها الآن وصف ابن شهيد لقرطبة « عجوز غانية ».

أما كلارا ماريــا توماس دى أنتونيو فتحدثنــا عن غرنــاطة فى الآدب العربى المعاصر على مستوى النثر والشعر ، وهذا المقال يفتح أفقا جديدا نحو فهم العقل العربى عندما يتجه الى اسبانيا اليوم محملا بتراث الأندلس الغــائبة الحاضرة أبدا كلما ذكرت اسبانيا المعاصرة أو كلما ذكرت علاقات العربى بأوربا أو ما يحل بالأرض العربية من تآكل وسقوط .

أما مقال كارمن رويث فهو قطعة بديعة من الشعر المنثور الذى يرسم صورة مليئة بقطرات ندى رومانسى يحدثنا عن المستعرب العظيم جارثيا جومث فى رحلة عبر غرناطة الحلم وغرناطة الواقع بوجهيه الحاضرين أبدا فى غرناطة وأنسامها : الماضى العربى – الحاضر الاسبانى الذى يكشف أكــثر مما يغطى عن أضواء الماضى حاملا لها نحو المستقبل . ان العجيب فى هذا المقال الشعرى ، انه موثق وأن تضميناته الموثقة لا تخل بشاعريته ، وانما تقرب العلم من الشعر ، كما قرب جومث الشعر من العلم .

آمل أن تكون بداية هذه المرحلة بداية لصدور المجلة كل ستة أشهر (أول يناير ثم أول يوليو من كل عام) ، كما آمل أن يصاحب هذه المجلة العتيدة ذات التاريخ الطويل النبيل كل توفيق وازدهار واستمرارية فى رسالتها .

سليمان العطار

بنو سراج وزراء بنى نصر
بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية

أولا : بنو سراج فى المصادر التاريخية :

(١)

بنو سراج ، أصلهم وبداية ظهورهم

يقترن اسم بنى سراج بحوادث مملكة غرناطة فى أيامها الأخيرة ، فقد كانوا من أشرف بيوتاتها ، وتولى بعضهم الوزارة لسلاطين بنى الأحمر ولعل أبرزهم ، « يوسف بن سراج » الذى تولى الوزارة للسلطان أبى عبد الله محمد بن نصر المعروف بالأيسر (١) . وفى عهد هذا السلطان قام بدور كبير فى توجيه سياسة

---

(١) **الأمير محمد الأيسر** : هو محمد بن الامير يوسف الثالث بن الامير يوسف الثانى . وقد تولى الأيسر حكم مملكة غرناطة عدة مرات ، وتخللت فترة حكمه ثورات وفتن . أما المرة الأولى فتمتد من عام ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) حتى عام ٨٣١ هـ (١٤٢٧ م) عندما ثار عليه محمد الزغير أو الصغير ، فاضطر الأمير الى الفرار الى تونس ، واحتمى بسلطانها الحفصى ابى فارس . وما لبث الأيسر أن استرد ملكه مرة أخرى وتمكن من هزيمة الزغير ، واستعاد عرشه بمؤازرة خوان الثانى ملك قشتالة سنة ٨٣٤ هـ (١٤٣٠ م) ٠ وحكم الايسر ثانية من آخر عام ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) الى عام ٨٣٥ هـ . وفى هذه السنة ثار عليه الأمير يوسف بن المول الذى نجح بمعاونة القشتاليين من انتزاع عرش غرناطة فانتحى الايسر الى مالقة التى ظلت على ولائها له ، ولم يلبث يوسف بن المول أن توفى وعندئذ استعاد الايسر سلطنة غرناطة مرة ثانية واستمر سلطانا منذ عام ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) الى عام ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) التى خلع فيها وتولى بعده محمد الأحنف بن نصر بن محمد الخامس ٠ وفى عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) عاد محمد الايسر الى الحكم للمرة الرابعة . (لمزيد من التفاصيل ارجع الى نبذة العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمؤلف مجهول ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ٤٦ حاشية ٦ — محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ وما يليها — أحمد محمد محمود الطوخى ، مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة ، رسالة دكتوراة ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٦ — يوسف شكرى فرحات ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٥٣ ، ٥٤ — وانظر عبد العزيز الأهوانى ، سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى سنة ٨٤٤ هـ ، مجلة كلية الآداب ، المجلد السادس عشر ، الجزء الاول ، مايو ، ١٩٥٤ ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١١٣ وما يليها — وانظر
Luis Seco de Lucena, «Las campañas de Castilla contra Granada en el año 1431», pp. 79-120.)

السلطنة ، فقد كان هذا الوزير النابه ، واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبار رجال دولته ، ومنذ ذلك التاريخ ظهر بنو سراج بغرناطة كأنداد للسلاطين ، والمحركين لخيوط الأحداث على المسرح السياسى . وكان بأيديهم الحل والربط فى جميع مناحى الحياة أدبية ومادية .

وبنو سراج من أعرق الأسرات الأندلسية العربية التى نزلت الأندلس فى تاريخ غير معروف على وجه الدقة ، ولكن اسمهم ورد أول مرة مرتبطا ببجانة ، فقد ذكر **الحميرى** فى **الروض المعطار** فى سياق وصفه لهذه المدينة أنها « مدينة بالأندلس ، كانت فى قديم الدهر من أشرف قرى أرش اليمن ، وانما سمى الاقليم أرش اليمن لأن بنى أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا بنى سراج القضاعيين فى هذا الاقليم وجعلوا اليها حراسة ما يليهم من البحر حفظ الساحل .. » (٢) .

ويذكر المؤرخون أن بنى سراج القضاعيين استمروا يقومون بحماية الساحل فتمتعوا فى مقابل ذلك باستقلال جزئى ، كما أصبح لهم الحق فى استغلال وادى أندرش الذى كان يعرف فى العصر الاسلامى باسم وادى بجانة ، وظلوا على ذلك الحال فأقامو لهذا الغرض برجا للحراسة بالقرب من مصب وادى بجانة فوق المرتفع الذى تقوم عليه قصبة المرية فى الوقت الحاضر باعتبار أن هذا المرتفع كان أصلح المواقع لهذا الغرض ، وسموا هذا المحرس باسم « مرية بجانة » ، واتخذها العرب رباطا وابتنت فيها محارس للرباط (٣) .

ويتضح لنا من ذلك النص أن **الحميرى** يرجع أصل بنى سراج الى قبيلة قضاعة اليمنية ، ويتفق معه فى ذلك **المقرى** الذى ذكر نقلا عن ابن غالب أن بنى سراج كانوا من أعيان أهل قرطبة ، وأرجعهم بدوره الى أصول يمنية ، وان كان قد نسبهم الى مذجج وطىء (٤) ، بينما يرجعهم **ابن بسام** فى **الذخيرة** الى كلاب بن ربيعة ، ويذكر أنه أصاب سلفهم سباء قديم صيرهم أولا فى ولاء بنى أمية بالمشرق فكانوا فى مقدمة الموالى المروانيين وصدرا فى عظمائهم ، ثم اتصلت نباهتهم

---

(٢) الحميرى ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٧٩ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الاندلس الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٢١ – أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة ، ص ١٦ .

(٣) العذرى ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٨٦ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية ، ص ٢٢ –

González Palencia, «Miscelánea de textos», apéndice a la edición Codera de la Takmila, Madrid, 1915, p. 432. Ibn al-Tubayr, Silat as-Sila, ed. Lévi-Provençal, Rabat, 1938, p. 24.

(٤) المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، طبعة القاهرة الأولى ، جـ ١ ، ص ١٤٠ ويأخذ بهذا النسب الاستاذ محمد عبد الله عنان فى المرجع السابق ، ص ١٥٥ ، والاستاذ شكيب ارسلان ، ارجع الى شاتوبريان ، آخر بنى سراج ، ترجمة وتعليق الامير شكيب ارسلان ، القاهرة ١٩٢٥ ، ص ٦٦ .

بالأندلس ، كما ذكر أن جدهم الأول الذى ينتمون اليه هو سراج بن قرة الكلابى صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم أكسبهم شرفا ومجدا وسؤددا عبر التاريخ الاسلامى كله (٥) .

ويتفق **ابن حزم** مع ابن بسام فى هذا النسب فقد أورد ما يشير الى أن سراج ابن قرة ينتمى الى بنى عبد الله بن كلاب (٦) .

وعلى هذا النحو نجد أنفسنا أمام فريقين يختلفـان فى نسب بنى سراج أما **الأول** فيرجعه الى أصول يمنية اما الى قضاعة على حد قول الحميرى أو الى مذجح وطىء كمـا يذكر المقرى . وأما **الثـانى** فينسبهم الى بنى كلاب بن ربيعة الذين يرجعون أساسا الى **مضر** ويدخلهم فى ولاء بنى أمية بالشام وهو ما ذكره كل من ابن حزم وابن بسام .

ونميل الى الأخذ برأى الفريق الثـانى الذى يرجع أصل بنى سراج الى كلاب للأسباب التالية :

١ – ان رأى الحميرى الذى ينسب بنى سراج الى أصول يمنية من قضاعة لا يستـند على أسس قويـة لأن نفس نسبة قضاعة الى اليمنيـة مشكوك فيها ، فقضاعة هم قضاعة ابن عدنـان فى قول ، وقضاعة بن حمير فى قول آخر (٧) ، وقد أشار ابن حزم الى هذه الحقيقة فى أكثر من موضع من كتابه «جمهرة أنساب العرب » فهو يذكر أن قضاعة بن معد بن عدنان أو قضاعة بن مالك بن حمير ، وينهى حديثه بعبارة «والله أعلم» (٨) ، وفى موضع آخر يقول ابن حزم « ولـد مضر الياس بن مضر ، وقيس عيلان مضر ، أمهما أسماء بنت سود بن أسلم بن الحارث بن قضاعة » (٩) .

٢ – يتفق الخبر الذى أورده كل من ابن حزم وابن بسام من أن بنى سراج ينتسبون الى سراج بن قرة الكلابى صاحب رسول الله (ص) وأنهم دخلوا فى ولاء بنى أميـة فأصبحوا من المـوالى المروانيين ، مع الأحداث التـاريخية والأدلة المنطقية ، فكون بنى سراج قد دخلوا فى ولاء بنى أمية بالشام يفسر قول الحميرى أن الأمويين أنزلوا بنى سراج القضاعيين على السواحل لحمايتها ، فالأمويون فى هذه الحالة ، كانوا يثقون فى بنى سراج أولا لمقدرتهم البحرية بعد دخولهم فى

---

(٥) ابن بسام ، الذخيـرة فى محاسن أهـل الجزيرة ، القسم الاول ، المجلد الثـانى ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٨٠٨ وما يليها .

(٦) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، القـاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٨٨ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٤٤٠ .

(٨) نفسه ، ص ٨ .

(٩) نفسه ، ص ١٠ .

ولاء بنى أمية بالشام منذ فترات طويلة ، تمرسوا خلالها على حياة البحر وثانيا لثقتهم فى اخلاصهم . وربما اختارهم بنو أمية لحراسة السواحل الاندلسية مع بنى الأسود اليمنيين لايجاد نوع من التوازن القبلى فى هذه السواحل .

٣ - من الثابت تاريخيا فى المصادر أن بنى سراج سيظهرون فى قرطبة زمن الخلافة وسيبرزون هناك فى كافة المجالات وخاصة فى الحياة الآدبية كما سنوضح على الصفحات التالية . وهذا ما يذكره المقرى نفسه (١٠) ، ثم نجدهم ينتقلون الى غرناطة بعد سقوط قرطبة فى أيدى القشتاليين (١١) . ونتساءل لما آثر بنو سراج التوطن فى غرناطة بالذات بعد رحيلهم من قرطبة ، دون أى مدينة أخرى من مدن الاندلس التى كانت لا تزال فى حوزة المسلمين ؟؟ ونستنذ فى الاجابة على هذا التساؤل الى نص أورده **المقرى** نطالع فيه « أن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بغرناطة كثير » (١٢) . وهذا الخبر يتفق تماما مع رأينا فى نسبة بنى سراج الى كلاب ، فهم قد اختاروا الموضع الذى كانت تنزل فيه كلاب التى ينتسبون اليها بدافع من الاعتزاز بعصبية الانتماء الى هذه القبيلة . كذلك أورد المقرى فى موضع آخر من كتابه خبرا نقله عن الشقندى مفاده أن غرناطة كان يطلق عليها اسم «دمشق الاندلس» لتشابه طبيعتها الجغرافية مع دمشق ولنزول جند دمشق بها فسموها باسمهم لتشابهها مع بلدهم فى القصر والنهر والزهر والغوطة وغزارة الأمطار وكثرة الأشجار (١٣) .

وهذا الخبر يتفق مع ما أورده ابن بسام من نسبة بنى سراج الى كلاب المواليين لبنى أمية فى الشام فبطبيعة الحال مال بنو سراج الذين كانوا موال للأمويين فى بلاد الشام الى غرناطة أو دمشق الأندلس .

وعلى هذا الأساس تصبح نسبة بنى سراج الى كلاب بن ربيعة على حد قول ابن بسام ، وابن حزم أكثر قبولا من نسبتهم الى أصول يمنية من مذحج وطىء وهو ما ذكره المقرى ، ونعتبر فى هذه الحالة أن قضاعة التى ينسبهم اليها الحميرى عدنانية .

ومن الجدير بالذكر أن رجالا يتسمون باسم «السراج» أو ينتمون الى أشخاص يحملون الاسم قد جاء ذكرهم فى حوادث الاندلس فى العصر الأموى ، **فابن حيان** يورد خبرا يقع فى أحداث عام ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) يذكر فيه أنه فى عهد الأمير عبد

---

(١٠) المقرى ، نفح الطيب ، الطبعة الأولى ، جـ ١ ، ص ١٤٠ .
(١١) شكب ارسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٦ .
(١٢) المقرى ، نفح الطيب ، الطبعة الأولى ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .
(١٣) المصدر السابق ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، جـ ١ ، ص ١٦٤ ، جـ ٤ ، ص ٢٠٤ .

الله ، دخلت جيوشه الأميرية الى جيـان وأخذوا منها الثائر المعروف «بالسراج» من أصحاب عمرو بن حفصون وحملوه الى قرطبة حيث صلب (١٤) ، ثم تكرر ذكر ثائر آخر يحمل هذا النسب ثار سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) على الأمير ، هو «أبو على السراج» المعروف بالزاهد (١٥) ، واستفحل خطره فيما بعد فقد انضم الى ابن القط الثـائر القرشى بغرب الانـدلس فى سنة ٢٨٨ هـ (٩٠٠ م) . وكان أبو على السراج الزاهد هو الذى يدعو لابن القط ويحرضه على الثـورة ضد الحكومة المركزية بقرطبة (١٦) ، وكان أبو على السراج يتردد على مناطق الثوار ثم يعود الى قرطبة مرة أخرى (١٧) .

واذا توقفنا قليـلا أمام حركة ابن القط القرشى ، نجـد أن هذا الثـائر هو «أبو القاسم أحمد بن معاوية بن محمد المعروف بـالقط الذى يرتفع نسبه الى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وكان من المهتمين بالعلم وخاصة علم الفلك والنجوم ، وقد خرج على الأمير عبد الله داعيا بالمعروف ناهيا عن المنكر ومطالبا بالجهاد فى سبيـل الله (١٨) ، ونفسر انضمام «أبى على السراج» الى حركته يرجع الى رابطة الولاء القديم التى كانت تربط بين بنى السراج أو سراج وبين الأسرة الأموية ، ولعـل هذا التحالف بين ابن القط والسراج يساعـد على ترجيح نسبة بنى سراج الى كلاب ودخولهم فى ولاء بنى أمية .

ويذكر **ابن الخطيب** فى **أعمال الأعلام** أن الخليفة هشام المؤيد ولى على قضاء الجماعة سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) القاضى «سراج بن عبد الله بن سراج» أحد أفراد هذه الأسرة البارزة (١٩) .

ونستنتج مما ذكره **ابن بسام** فى **الذخيرة** أن بنى سراج واصلوا الاحتفـاظ زمن الفتنة بمكـانتهم السامية ، يقول ابن بسام «بـل اقتصروا على مكـاسبهم الطيبة ، وترجيح رفيع معايشهم من مبـاشرة ضياعهم المنتشرة المغلة ، مقتعدين غارب الوقار والتجلة أيام الصلاح وزمان الجماعة ثم استمروا على طريقتهم

---

(١٤) ابن حيان ، المقتبس فى تأريخ رجال الاندلس ، تحقيق أنطونية ، باريس ١٩٣٧ ، ص ١٠٢ .
(١٥) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .
(١٦) نفسه ، ص ١٣٣ .
(١٧) نفسه ، ص ١٣٨ .
(١٨) عن ابن القط وحركته ارجع الى المصدر السابق ، ص ١٣٧ وما يليها ، وعن جمـال ابن القط وحسن صورته والأشعار التى قيلت فيه ارجع الى ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ١٩٦٣ ، جـ ٢ ، ص ٣٦٨ – ولمزيد من التفاصيل عن أبى على السراج ارجع الى
Lévi-Provençal, «Histoire de l'Espagne musulmane», t. I, p. 382.
وعن حركـة ابن القط ارجع الى سحر السيد عبد العزيز سالم ، التـاريخ السياسى لبطليـوس الاسلامية وغرب الاندلس فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، جـ ١ ، ص ٢٩٨ وما يليها .
(١٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٤٩ .

تلك فى مدة الفتنـــة وأمد المحنة عنــد تقلص الأموال وذهـــاب الأحوال وخشوا الاختلال ، لم يفــارقوا مع تزلــزل الأقدام وتقلب الأيــام وذهاب السلطـــان ، وتضعضع الأركان مركزهم من الصيانة ، ولا أخلوا بكريم عادتهم من التحلى بها والتزين بباهر رونقها ...» (٢٠) . وقد برز عدد من أبنـــاء هذه الأسرة فى مجالات السياسة والأدب نذكر من أبرزهم الامام الفقيه «سراج بن عبد الله بن سراج» الذى ظلت رواياته وعلومه تدرس فى المغرب والاندلس حتى أن الشيخ القاضى أبا الفضل بن عياض أخذ عنه وعن رواياته . أما ولده الوزير الفقيه «أبو مروان عبد الملك بن سراج» فكان من ألمع وأشهر أفراد هذه الأسرة .

وقد ولد هذا الفقيه فى ربيع الأول لاثنـــتى عشر ليلة خلت منه سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) وتوفى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) (٢١) . وقد وصفه ابن بسام بأروع الصفات من ذلك أنه «فذ العصر وعلم الفخر ، وبقيت حسنات الدهر ، ونخبة أهل التقدم فى شرف النصاب وكرم الأحساب ...» (٢٢) . وقد أحيا أبو مروان عبد الملك بن سراج كثيرا من الدواوين الشهيرة الخطيرة التى أحالتها الرواة الذين لم تكمل لهم الأداة ولا استجمعت لديهم تلك المعارف والآلات ، واستدرك فيها أشياء . مما نسيها مؤلفيها ككتاب «البـــارع» لأبى على البغدادى ، وشرح «غريب الحديث» للخطابى وقاسم بن ثابت السرقسطى ، وكتاب «أبيات المعانى» للقتبى ، وكتاب « النبـــات » لأبى حنيفة ، وكتـــاب « الأمثـــال » للأصبهانى وغير ذلك (٢٣) . ووصفه **ابن الخطيب** فى **الاحاطة** بأنه كان ثقة صدوقا ، وأنه كان من أساتذة الوزير أحمد بن خلف بن عبد الملك الغسانى القليعى ، وزير ابن بلقين صاحب غرناطة (٢٤) ، كما درس للفقيه أبى جعفر محمد بن حكم بن محمد بن أحمد بن باقى الجذامى من أهل سرقسطة الذى استوطن غرناطة زمنا ثم تركها الى فاس (٢٥) ، وكان من تلاميذه المقرىء الفقيه أبو الحسن على بن محمد درى الخطيب بجامع غرنـــاطة والمتوفى فيها فى رمضان سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) وكان قد أخذ عنه وعن ولده سراج من بعده (٢٦) .

وعندما توفى الوزير «أبو مروان بن سراج» صلى عليه ولـــده الوزير الفقيه «أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج» الذى وصفه **ابن بسام** بأنه «تاليه فى

---

(٢٠) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨٠٨ .
(٢١) المصدر السابق ، ص ٨٠٨ ، ٨١٢ .
(٢٢) نفسه ، ص ٨٠٨ .
(٢٣) نفسه ، ص ٨١٢ .
(٢٤) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .
(٢٥) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٧٢ .
(٢٦) نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٠١

الفضل وكرم الخلال مع سرى الخصال وحائز ميراث مفاخره الجمة ..» (٢٧).

وأثارت وفــاة عبد الملك بن سراج الحزن فى أوساط العــامة والخاصة على السواء ، ورثاه عدد كبير من كبــار الشعراء فى الاندلس أمثال الشيخ الفقيه أبو بكر بن حازم ، والوزير الفقيه أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكى بن أبى طالب القيسى ، ومما جاء فى قصيدة نظمها الأخير فى رثائه :

أودى سراج المجد وابن سراجه ... فلنــور شمس المكرمــات أفــول
لو كـــان علم الدين يبكى ميتـــا ... لبــكى الحديث عليــه والتنزيــل
كـــم من حـــديث للنــبى أبــانه ... فبدت له غرر تــرى حجول (٢٨)

كما أبنه الوزير الكاتب «أبو محمد عبد المجيد بن عبدون» ، والوزير «أبو بكر محمد بن ذى الوزارتين الكاتب أبى مروان بن عبد العزيز» والكاتب «أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن طريف» ورثاه الأديب «أبو العباس أحمد بن محمد الكنانى» أحد تلامذته الآخذين عنه بقصيدة أولها :

رزء تطلبت فيــه الصبــر فــامتنعــا ... ورمت دمعى على التسكين فاندفعــا

وقال فيها :

حديث صدق نعى الناعى الى ضحى ... فزعت فيــه الى التكـذيب حين نعى
صبرا سراج فمـــا يبقى الردى احدا ... كل سيجرعه من كـأسه جرعا (٢٩)

أما ابنه سراج فقد ورد اسمه فى كثــير من المصادر العربية على أنــه من بين الشيوخ الذين درسوا للقاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى (٣٠) . ولكننا نلاحظ أن المصادر العربيــة تختلف فى ذكر كنيــته فهو فى قول **ابن الخطيب** «أبــو الحسن سراج بن عبــد الملك بن سراج» كما ورد فى أكــثر من موضع من كتــابه **الاحاطــة** (٣١) ، بينما كنــاه كل من ابن خاقــان وابن بسام والمقــرى «بــأبى الحسين» (٣٢) .

---

(٢٧) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨١٢
(٢٨) المصدر السابق ص ٨١٢ وما يليها .
(٢٩) نفسه .
(٣٠) ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ٤ ، ص ٤٤٤ – وارجع كذلك الى المقرى ، أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ، محمد بن تاويت ، المحمدية ، ١٩٧٨ ، جـ ٥ ، ص ٨٠ ، حاشية ١٧٣ .
(٣١) ابــن الخطيب ، الاحاطــة ، جـ ١ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٦ ، جـ ٢ ، ص ٣١٥ ، جـ ٣ ، ص ٨٩ ، ص ٤٧٧ ، ٢٤٨ ، جـ ٤ ، ص ٢٤٤ ، ٢٥٠ .
(٣٢) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الاندلس دراسة وتحقيق محمد على شوابكة ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ١٩١ ، ٣٨٠ – ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨١٢ ، ٨٢١ – المقرى ، أزهار الرياض ، جـ ٥ ، ص ٩٩ .

ونميل من جانبنا الى ترجيح كنيته بأبى الحسين لأن ابن خاقان كان صديقا له ولوالده وروى عنه كثيرا من الحكايات . وكان ابن خاقان يلتقى مع والده أبى مروان فى منزل الوزير أبى عامر بن شهيد (٣٣) . ويروى **ابن خاقــان** كثيرا من الأخبار عن أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج فيذكر منها أنه كثيرا ما كان يلقاه مع الوزير ابن شهيد ويقص بعض أخباره فيقول كنا «نحضر مجلس شرابه ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفــارقه أكثر نهاره ولا يخليه من نثر درره وازهاره ...» وروى عنه حكاية طريفة فقال «فعقد منه ليلة سبع وعشرين من رمضان فى لمة من اخوانه وأئمة سلوانه وقــد حفوا به ليقطفوا نخب أدبـــه وهو يخلط لهم الجد بهــزل ولا يفرط فى انبساط مشتهــر ولا انقباض جزل ، واذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها ، وهى ترتاد موضعا لمناجاة ربهــا وتبتغى منزلا لاستغفار ذنبهــا وهى متنقبة ، خائفة ممن يرقبها مترقبة وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبى يمرح فى كناس ، فلما وقعت عينها على أبى عامر ولت سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشبب بها أو يشهرها باسمها فلما نظرها قال قولا فضحها به ، وشهرها» . وقد أورد ابن خاقان بعض أبيــات من الشعر فى ذلك (٣٤) . وتوفى أبو الحسين (٣٥) سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) وهو فى التاسعة والستين من العمر .

كذلك يورد **ابن خاقــان** خبرا عن أبى الحسين سراج عند ترجمته للأديب أبى بكر عبد المعطى بن محمد بن المعين ، فيذكر أن أبا الحسين سراج كان يأتى لأبى بكر بكل ما يبغى « خيفة من لسانه ومحافظة على احسانه ، ولما خرج الى اقليش

---

(٣٣) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ١٩١ – المقرى ، أزهــار الرياض ، جـ ٥ ، ص ٩٩ – شكيب ارسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٦ . وقد قام الاستاذ محمد على شوابكة محقق كتاب مطمح الأنفس بتصحيح كنية سراج بن عبد الملك بن سراج على أنها «أبى الحسن» بدلا من أبى الحسين ، ولكن جانبه الصواب فى ذلك .

(٣٤) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ١٩١ وما يليها .

(٣٥) يذكر الاستــاذ محمد على شوابكة محقق كتــاب مطمح الأنفس أن سراج بن عبد الملك بن سراج ولد سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ، وهو بذلك لم يعاصر ابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) ويفسر هذه الرواية التى رواها ابن خاقان بأنه ربما قصد بهذه الرواية أباه أبا مروان عبد الملك بن سراج وليس سراج نفسه . أما شارل بيلا جامع ديوان ابن شهيد فيعتقد أن الكــاتب (ابن خاقان) أتى بخبر كاذب انتحله انتحالا وافتعله افتعالا . أما الشعر فصحيح النسبة مشهور (مطمح الأنفس، ص ١٩٢ وما يليها) وأعلق بدورى على هذه القصة مفترضة الصدق فى ابن خاقان وأفسر ذلك اللبس بأنه ربما كان ابن خاقان وأبى الحسين سراج قد ألتقيا بالفعل فى دار ابن شهيد كما ذكر ، ولكن بعد وفاته كنوع من اللقاء الأدبى فى منزلة احياء لذكراه مثلا فى جلسة أدبية . وتذكر رشيل آرييه أن أبا الحسين بن سراج كان يعيش فى القرن ١٣ م وقد أخطأت بذلك لأنه كان من آهالى القرن ١٢ م فقد توفى فى بداية القرن السادس الهجرى فى سنة ٥٠٨ هـ الموافقة ١١١٤ م .

Rachel Arié, «Le Royaume, Nasride de Granada realité de légende», dans Awrāq, núm. 4, 1981, p. 156.)

خرج معه وجعل يساير من شيعه فلما حصلوا بفحص سرادق وهو موضع توديع المفارق للمفارق قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه وأنشده فى تفرق الشمل :

هم رحلوا عنا لأمر لهم عنا فما أحد منهم على أحد هنا
وما رحلوا حتى استقادوا نفوسنا كأنهم كانوا أحق بها منا
فياساكنى نجد لتبعد داركم ظننا بكم ظنا فأخلفتم ظننا (٣٦)

ويصفه ابن بسام بأنه اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه فانه سراج علم وأدب وبحر علم لغة لسان العرب واليه فى وقتنا هذا بحضرة قرطبة سد الاقتاب وانضاء الركاب فى الاقتباس منه ، ثم انه فى هذا الفن الذى نحن فى اقامة أوده زمامه وخطامه فى يده ولنظمه ونثره ديباجة رائعة وهو القائل :

لما تمكن من فؤادى منزلا وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحما من عبرة أفضت بأسرار الضمير اليه
رفقا بمنزلك الذى تحتله يامن يخرب بيته بيديه » (٣٧)

وممن قرأ على أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج ، محمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البلفيقى ابن الحاج (٣٨) ، وروى عنه الفقيه النحوى الأديب ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن أبى خيثمة الجبائى بعد أن صاحبه صحبة مؤاخاة (٣٩) ، وأبو جعفر أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد (٤٠) وأبو القاسم أحمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبد الله بن ورد المعروف بابن ورد (٤١) ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن فتوح الخثعمى المقرىء المجود المحقق المتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) (٤٢) . وممن روى الحديث عنه الفقيه الكبير محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الجد الفهرى الذى وصفه **ابن الخطيب** بأنه «جليل اشبيلية وزعيم وقته زمن الموحدين» (٤٣) .

ويورد **المقرى** نماذج من أشعار أحد بنى سراج النابهين وهو الشاعر «أبو عبد الله بن السراج » الذى كانت بينه وبين الشاعر أبى الحسن بن الغليظ المالقى اجازة ، وفى ذلك يقول المقرى «قال أبو الحسن بن الغليظ المالقى ، قلت يوما

---

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٣٨٠ .
(٣٧) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨٢١ .
(٣٨) ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ .
(٣٩) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٥ .
(٤٠) نفسه ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، ص ٢٠١ .
(٤١) نفسه ، جـ ١ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٤٢) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٧ .

للأديب أبى عبد الله بن السراج المالقى (٤٤) ، ونحن على خرير ماء أجز : شربنا على خرير ماء كأن خريره فقال مبادرا : بكـاء محب بان عنه حبيب ...» (٤٥) . كما كتب أبو على الحسن بن الغليظ الى صاحبه أبى عبد الله بن السراج وقـد قدم من سفر :

يــامن أقلب طـرفى فى محاسنـه فلا ارى مثله فى النـاس انسانا
لـو كنت تعلم مـا لقيت بعدك ما شربت كأسا ولا استحسنت ريحانا

فورد عليه من حينه وقال :

أردت مجاوبتك فخفت أن أبطىء وصنعت الجواب فى الطريق (٤٦) .

وفى القرن الثامن الهجرى برز من بنى سراج الشيخ الفقيه «أبو زكرياء يحيى ابن السراج» الذى كتب فهرست تضمنت تراجم أهم علماء عصره ، ومن بينهم القـاضى على بن محمد بن عبد الله النباهى المـالقى ، وقد وصف ابن سراج ، النبـاهى فى فهرسته بأنه «الشيخ الفقيه ، الراوية ، قاضى الجماعة بالأندلس وخطيبها» (٤٧) ، كما ذكر أساتذته ومن أخذ عنهم وأنه قدم رسولا لفاس عامى ٧٦٧ - ٧٨٨ هـ / ١٣٦٥ - ١٣٨٦ م) .

وقد كتب الامام يحيى بن السراج ، نسخة من كتاب « الشفـاء » بخطه وتلقى علومه على الشيخ العارف محمد بن عباد (٤٨) . ووصلنا من أنباء هذه الأسرة اسم طبيب شهير هو الطبيب «عبد الله بن سراج» من أعلام القرن الثامن الهجرى وقد تتلمـذ على يديه أبـو عبد الله محمد بن على بن فرج القربليانى المعـروف بالشفرة (٤٩) .

وفى القرن التاسع الهجرى برز الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن يحيى السراج ، حفيد الفقيه أبى زكرياء يحيى بن سراج . ومن أبرز ما رواه أبو عبد الله محمد بن سراج ، حديثا للرسول (ص) بشأن مدينة سبتة رواه عن ابن عمر

---

(٤٣) نفسه ، جـ ٣ ص ٨٩ . وكان مولـد ابن الجـد الفهرى سنة ٤٩٦ هـ ووفـاته باشبيلية فى شوال سنة ٥٨٦ هـ .
(٤٤) مما يؤكد أن أبا عبد الله بن السراج هذا كان يعيش فى مدينة مالقة .
(٤٥) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٢٥٢ (طبعة محيى الدين عبد الحميد) .
(٤٦) نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .
(٤٧) المقرى ، أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ٦ .
(٤٨) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٨٠ .
(٤٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ . وتسميه راشيل آرييه ، بأبى عبد الله محمد ابن ابراهيم بن السراج وتذكر أنه عاش فى بداية القرن ١٤ م .
Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156.

ومفـــاده «مدينة بالمغرب ، سمعت رسول الله (ص) يقول انها على مجمع بحرى المغرب ، وهى مدينة بنـــاها سبت بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام ، واشتق لها اسما من اسمه ، فهى سبتة ، ودعا لهـــا بالبركة والنصر فلا يريد أحد بها سوءا الا رد الله دائرة السوء عليه» (٥٠) .

وممن بـــرز من بنى سراج فى هـــذا القرن الفقيـــه «أبو القـــاسم بن سراج الغرناطى» ويذكر **المقرى** أن أبا عبد الله بن مرزوق المعروف بالحفيد ، الذى أدرك القلصادى فى رحلته ، كتب عدة تآليف من بينها كتـــابه «المعراج الى استمطـــار فوائد الأستـــاذ ابن سراج» فى كراسة ونصف ، أجاب به أبا القـــاسم بن سراج الغرناطى على مسائل نحوية ومنطقية (٥١) .

وما دمنـــا قد تقصينا أصل بنى سراج ، وأبرز من تسمى أو ينسب باسمهم ، فعلينا أن نتوقف قليـــلا لمعرفة حقيقة نسبهم ، هـــل ينتسبون الى السراج بفتح السين وتشديد الراء أم الى السراج بكسر السين وفتح الراء أم الى سراج بتشديد الراء أو سراج بفتح الراء .

والواقع أن المصادر العربية استخدمت هذه الصور الأربعة للاسم **فـــالمقرى** مثـــلا يذكر أبو الحسين سراج بن عبد الملك فى **ازهـــار الريـــاض** على أنه «ابن سراج» (٥٢) دون اضافة (أل) تعريف أو تشديد الراء ولكنه فى مواضع أخرى من كتـــابه يذكر اسم أبى زكريـــاء يحيى أحد أفـــراد هذه الأسرة على أنه « ابن السراج» (٥٣) ، كما ذكر منهم الشاعر «أبا عبد الله بن السراج» (٥٤) بالتشديد واضافة أل التعريف ، فى حين أنه ذكر «أبا القاسم بن سراج» دون التعريف أو تشديد الراء (٥٥) .

ويذكر **ابن الخطيب** اسم أبى مروان عبد الملك بن سراج فى أكثر من موضع من **الاحاطة** دون حرفى الألف واللام للتعريف ، ودون تشديد الراء (٥٦) ، ولكنه عندما يتحدث عن ولده أبى الحسين يذكره فى بعض الأحيـــان على أنه «سراج بن سراج» (٥٧) وفى أحيان أخرى على أنه «ابن السراج» (٥٨) . وكان ابن حيان كما سبق أن ذكرنا قد أورد أسماء الثوار من هذه الأسرة ، على الأمير عبد الله على

---

(٥٠) المقرى ، أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ .
(٥١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٣٤٨ – شكيب أرسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٨ .
(٥٢) المقرى ، أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ١٦٠ .
(٥٣) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ .
(٥٤) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٢٥٢ .
(٥٥) المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٤٨ .
(٥٦) ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ١ ، ص ١٤٧ ، جـ ، ٣ ص ٧٢ ، جـ ٤ ، ص ١٠١
(٥٧) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٩٦ ، ١٧٠ ، جـ ٤ ، ص ٢٢٤ ، جـ ٢ ، ص ٣١٥ .
(٥٨) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٧ ، ص ٨٩ .

أنهم من بنى «السراج» باضافة أداة التعريف مع التشديد على حرف الراء (٥٩).

أما **ابن بسام وابن خاقان** فيذكران الاسم مجردا من «ال» للتعريف ومن الشدة فوق الراء (٦٠) .

هذا وقد عثر على شاهدى قبر لفارسين من بنى سراج سنتحدث عنهما بالتفصيل فى الصفحات التالية ، نقش عليهما اسم السراج بتشديد الراء مع اضافة التعريف (٦١) . كما أن المصادر الاسبانية تذكر الاسم على أنه «Abencerraje» كترجمة للاسم العربى « سراج » بتشديد الراء وذلك وفقاً لما ورد فى **قصة ابن سراج** التى دونت فى غرناطة بعد سقوطها فى أيدى الملكين الكاثوليكيين بسبعين عاما ، وكما ورد فى كتاب **Ginez Perez de Hita** الموسوم بـ**Guerras Civiles de Granada** . ويذكر كل من **لويس سيكو دى لوثينا** و **راشيل** اريبه بنى سراج مضافا اليه حرفى «ا» و «ل» للتعريف مع ازدواج حرف « R » ، وفسرا المعنى بانهم أبناء صانعى السروج (٦٢) ومنه اشتق الاسم الاسبانى Abencerrajes .

ونميل من جانبنا الى الأخذ بالصورة التى أوردها كل من ابن بسام وابن خاقان للاسم وهو «بنو سراج» دون التعريف والتشديد ، اذ أخذنا فى الاعتبار أن ابن خاقان كان معاصرا لاثنين من أبناء هذه الأسرة كما سبق أن ذكرنا ، هما أبو مروان عبد الملك ابن سراج ، وابنه سراج بن عبد الملك فهما أقرب الى هذه الأسرة من أى مصدر آخر .

ونضيف الى ذلك أن الجد الاول لهذه الأسرة هو «سراج بن قرة» ، وعلى هذا الأساس يصبح اسم الأسرة المرجح فى تصورنا هو «بنو سراج» وليس «السراج» وربما يكون حرفا «ال» للتعريف والتشديد على الراء قد أضيفا تسهيلا على عامة الناس فى النطق .

(٢)

بنو سراج وزراء سلاطين غرناطة

مرت مملكة غرناطة الاسلامية فى الفترة ما بين عامى ٧٦٠ – ٧٦٣ هـ (١٣٥٩ – ١٣٦٢ م) بأزمات سياسية واقتصادية عنيفة جعلتها عرضة لانقلابات

---

(٥٩) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق أنطونية ، ص ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٠٢ .

(٦٠) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٨٢١ – ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ١٩١

(٦١) Emilio García Gómez, «Sobre los epitafios de dos caballeros abencerrajes», **Al-Andalus**, 1942, Madrid, pp. 284-289.

(٦٢) (Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156)

متعددة ، ومن أشهر هذه الانقلابات ثلاثة متتابعة راح ضحيتها عدد من الملوك والقـادة والأمراء . وقد حدث الانقـلاب الاول فى ٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ (٢١ أغسطس ١٣٥٩ م) وانتهى بخلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله (أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر) ونفيه الى المغرب ، وتوليـة أخيه أبى الوليد اسماعيل الثـانى . أما الانقلاب الثانى فقد وقع فى ٨ شعبان سنة ٧٦١ هـ (٢٤ يونيو ١٣٦٠ م) وانتهى بمقتل السلطان أبى الوليد اسماعيل الثانى ، واعتلاء قاتله الرئيس أبى عبد الله محمد الغالب بالله عرش السلطنة (٦٣) . أما الانقلاب الثـالث فينتهى بعودة السلطـان المخلوع محمد الخامس الغنى بالله بعد مقتـل السطان الغالب بالله المغتصب ، وذلك فى جمادى الآولى سنة ٧٦٣ هـ (١٦ مارس ١٣٦٢ م) .

وقد رفضت كبار الشخصيات الغرناطية التعاون مع السلطان المغتصب أبى عبد الله محمد ، الغـالب بالله ، ففرت اعداد كبيرة من تلك الشخصيات البـارزة من غرناطة هربا من بطشه نذكر منهم الأمير أبا الوليد اسماعيل بن نصر عم السلطان محمد الخامس وصهره ، الذى فر الى بلاد المغرب ، والشيخ المغربى يحيى بن عمر ابن رحو بن عبد الحق شيخ الغزاة المغاربة بغرناطة الذى فر الى البلاط المرينى بفـاس . كذلك يشير **ابن الخطيب** الى فرار زعيم غرنـاطى شهير يدعى «ابراهيم السراج» الى بلاط ملك قشتالة (٦٤) . **ويعلق الدكتور أحمد مختار العبـادى** على ذلك بـأنه لا يعرف عن هذا الزعيم شيئا ، ويفترض أن يكون من أسرة بنى سراج Abencerrajes المعروفة فى الأندلس (٦٥) . ونلاحظ أن اسم بنى سراج سيرتبط بدءاً من هذا التاريخ ارتباطـا وثيقا بحوادث مملكة غرناطـة خاصة بعد وفاة السلطان محمد الخامس عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) عندما تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف ، فقاست المملكة كثيراً من جراء الدسائس والفتن والمؤامرات حـول العرش (٦٦) . وفى عام ٨٢٠هـ (١٤١٧م) توفى السلطـان يوسف الثالث بعد حكم دام نحو تسعة أعوام فتوالى على عرش غرناطة بعده عدد

---

(٦٣) أحمد مختار العبادى ، فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، ١٩٦٥ ، مدريد ، ص ٦٣ – أما الرئيس أبو عبد الله محمد السادس الغالب بالله فهو أحد أبنـاء عمومة محمد الخامس وزوج شقيقته ، وتسميه المصادر الاسبانية بأبى سعيد البرميخو Bermejo أى صاحب اللون البرتقالى الضارب للحمرة نسبة للون شعره ولحيته . (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٣٠٨) .

(٦٤) ابن الخطيب ، نفـاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، تحقيق د. احمد مختـار العبادى ، طبعة القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ ، ١١٨ .

(٦٥) لمزيد من التفـاصيل عن هذه الفترة المضطربة ارجع الى احمد مختار العبـادى ، فترة مضطربة ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٦٦) أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ، ص ١٦ .

من السلاطين الضعاف أولهم ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر ، الذى كان صارما قاسيا بعيدا عن الاهتمام برعيته ومصالحهم (٦٧) . وعندئذ بدأ نجم بنى سراج السياسى يتـألق على المسرح السياسى فى غرناطة ، فالسلطان الأيسر قد اتخذ من بين أبنـاء هذه الأسرة وزيراً له هو « يوسف بن سراج » . وكـان بنو سراج قد ساعدوا الأيسر منذ البداية فى الظفر بالسلطنة (٦٨) .

وقـام يوسف بن سراج بدور كبير وهـام فقد كان يعتبر الوسيط الوحيد بين السلطان الأيسر وشعبه وكبار رجال دولته ، فكـان يعمل ببراعة تامة ورقة على تلطيف حدة السخط العام على سلطانه الأيسر .

ولهذا السبب يبدأ دور بنى سراج منذ أن اعتلى الأيسر دست السلطنة فى الظهور والتقدم على القادة والزعماء الذين يحركون الأحداث السياسية بأعظم نصيب . ورغم محاولات الوزير الشهير «يوسف بن سراج» المتواصلة لتهدئة الأمور الا أنها لم تثمر فى تخفيف سخط الأهـالى على الأيسر بل على الضد من ذلك فقد احتدمت نيران الثورة عليه ولم يلبث أن خلع من السلطنة ثم استرجعها أكـثر من مرة . من ذلك ما حدث سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) عندما انتهز أهالى غرناطة فرصة غزو القشتاليين لبسائط وادى آش ، فقاموا بثورة عارمة انتهت بخلع الأيسر ومبايعة الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث الملقب بالزغير (٦٩) مما اضطر الأيسر الى الرحيل مع أهله الى تونس فنزل ضيفا على السلطان أبى فارس الحفصى (٧٠).

وفشل الأمير محمد الزغير فى القضاء على الدسائس والفتن المستمرة رغـم فروسيته وقدراته العالية ، وكان السبب وراء فشله هذا يرجع الى «بنى سراج» ألد خصومه وأكثر الموالين من بيوتات غرناطة للسلطان المخلوع ، الآيسر ، لذلك قام الزغير بمطاردة هذه الأسرة العريقة وعمل على سحقهم واستئصال نفوذهم القوى المستشرى فى جميع أنحـاء المملكة مما دفـع الوزير يوسف بن سراج الى مغادرة غرناطة مع عدد كبير من أفراد أسرته هربـا من بطش «الزغير» . رحـل بنو سراج بادىء ذى بدء الى ولاية مرسية ومن هنـاك انتقلوا الى اشبيلية وكان

---

(٦٧) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٥٤ – يوسف شكرى فرحات ، غرنـاطة فى ظل بنى الأحمر ، ص ٥٣ .

(٦٨) أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ، ص ١٦ .

(٦٩) هى كلمة عاميـة أصلها الصغير ، وهو ابن أخى الأيسر فى رواية وولده فى رواية ثانيـة وأحد أبناء عمه فى رواية ثالثة (لمزيد من التفاصيل ارجع الى عنان ، نهـاية الاندلس ، ص ١٥٥ ، يوسف شكرى فرحات ، ص ٥٣) .

(٧٠) Luis Seco de Lucena Paredeo, «Más rectificaciones a la historia de los últimos nasries, un sultán llamado "el Chiquito"», **Al-Andalus**, vol. XXIV, Madrid, 1959, p. 284. José Francisco de Luque, «Historia de Granada y sus contornos», Granada, 1858, p. 125.

يتقدمهم يوسف بن سراج الذى لاذ بحماية خوان الثانى ملك قشتالة . وانتهز خوان الثانى هذه الصراعات ليتدخل فى شئون السلطنة ، ويحرز مكاسب جديدة ، فأبدى ترحيبه ببنى سراج وأكرم وفادتهم ، واتفق مع يوسف بن سراج على العمل لرد السلطان الأيسر الى عرشه . وبالفعل استدعى بنو سراج ، الأيسر من تونس فاستجاب لدعوتهم ، وعاد الى الاندلس مزودا بفرقة من الفرسان الحفصيين ، وتوجه الى المرية ومنها تمكن بمساعدة بنى سراج من استعادة عرشه ، وقبض على الزغير وتخلص منه (٧١) .

وهكذا سيطر الأيسر على غرناطة من جديد سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠ م) واهتم باعادة تنظيم مملكته . وكانت أولى الخطوات التى اتخذها من أجل ذلك ، اعادة «يوسف بن سراج» الى الوزارة ، ويلى ذلك تجديد الهدنة مع قشتالة ، ولكن الملك القشتالى اشترط على الأيسر دفع اتاوة باهظة ، والاعتراف بطاعة قشتالة فرفض الأيسر تلك الشروط المجحفة مما أدى الى هجوم القشتاليين على الثغور الغرناطية فى غارات مدمرة مما أوقع البلاد فى محنة جديدة ، وأفسح المجال لانقسام المملكة الى شيع وأحزاب متنافسة ووجد النصارى فى ذلك فرصة مواتية لاذكاء نيران الفتن وبسط سلطانهم على مملكة غرناطة . وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمى الى بيت الملك عن طريق أمه هو الأمير أبو الحجاج يوسف بن المول الذى تسميه المصادر الاسبانية Abenalmao (٧٢) . وكان ابن المول يتمتع بتأييد الملك القشتالى خوان الثانى لأنه تعهد أن يحكم غرناطة باسمه وأن يدخل فى

---

(٧١) يذكر المؤرخ الاسبانى خوسيه فرنثيسكو دى لوكى José Francisco de Luque تفاصيل هذه الأحداث فى كتابه «Historia de Granada y sus contornos». فيقول أن يوسف ابن سراج خرج مع أربعين من رجاله الى لورقة فاستقبله بعض أصحابه واستضافوه ، ثم انتقل الى مرسية ، ومن هنك توجه للقاء الملك القشتالى وتوسل اليه أن يساعده فى اعادة الأيسر الى السلطنة ويذكر de Luque أن يوسف بن سراج ذهب بنفسه الى تونس حاملا رسائل من الملك القشتالى الى الأيسر ، وهناك استقبله سلطانها الحفصى بكل ترحاب ووافق على عودة الأيسر الى بلاده (لمزيد من التفاصيل ارجع الى José Francisco de Luque, op., cit., p. 125)

أما واشنطن ايرفينج فقد أورد فى كتابه عن قصر الحمراء ما يشير الى أن الملك خوان الثانى ملك قشتالة أرسل رسولا من قبله ليرافق يوسف بن سراج ، وليحمل رسالة الملك القشتالى بنفسه الى سلطان تونس يدعوه الى ارسال الأيسر للأندلس مرة أخرى (واشنطن ايرفينج ، قصر الحمراء فى الأدب والتاريخ ، ترجمة اسماعيل العربى ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ١٤٧ – وارجع كذلك الى Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156

وتذكر الروايات أن الأيسر قد قبض على الزغير عند دخوله غرناطة وقطع رأسه ، وفى رواية أخرى أنه اعتقله مع أخيه أبى الحسن على بن يوسف فى قلعة شلوبانية . (محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٥٦ وارجع الى بحث

Luis Seco de Lucena, «Las campañas de Castilla contra Granada en el año 1431» المنشور فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الرابع ، ص ٨٠) .

(٧٢) أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ، ص ١٧ ، ١٨ .

طاعته كما تعهد بحضور مجلس الكورتس (الأعيان) معترفا بولائه لملك قشتالة ، وأن يحارب معه ضد أعدائه وأن يؤدى له اتاوة سنوية لو ساعده فى الارتقاء الى دست السلطنة ، وعلى أساس تلك الشروط عقدت معـاهدة بين الجانبين (٧٣) . ولم يتردد يوسف بن المول فى السير الى غرناطة تسانده قوات قشتالة وتمكن من الاستيـلاء على عدة قواعد دانت له بالطـاعة ومنها رندة ولوشه وحصن اللوز وغيرها ، وأعلن خوان الثانى انحيازه الى يوسف ونودى به ملكا ، وتوجه ابن المول الى غرناطة نفسها فتصدى له جنود الأيسر بقيادة وزيره «يوسف بن سراج» الذى انهزم فى تلك المعركة ولقى مصرعه ، وعلى أثر ذلك دخلت قوات ابن المول غرناطة ، فهرب الأيسر مع أسرته الى مالقة التى ظلت موالية له ، فى حين تربع ابن المول على عرش السلطنة فى سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) وبعد أقـل من سنة توفى ابن المول فاتفقت الأحزاب فى غرناطة على رد السلطان الايسر مرة أخرى (٧٤) .

وفور عودة السلطان الأيسر الى عرش غرناطة للمرة الثالثة بادر بعقد معاهدة صلح مـع ملك قشتـالة فعقدت هدنة بين الطرفين لـمدة عام ، ورغم ذلك أغـار القشتاليون على أراضى غرناطة الشرقية فردهم المسلمون بقيـادة **ابن عبد البر** زعيم بنى سراج والوزير الجديد للأيسر الذى خلف يوسف بن سراج ثم أوقعوا بهم هزيمة ثانية عند مدينة أرشذونة وقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا (٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م) (٧٥) .

وفى العام التـالى سار السلطان الأيسر لقتـال القشتاليين فى أحواز غرناطة ووادى آش وانتصر عليهم أكثر من مرة ، ولكن القشتاليين عاودوا الاغارة على بعض الحصون المجاورة وزحفت قوة كبيرة منهم بقيادة حاكم لبلة على ثغر جبل طارق ، ولكن أهالى الثغر تصدوا لهم ، فجدد القشتاليون غاراتهم على مقربة من كازورلا والتقى المسلمون بقيـادة ابن الوزير (ابن عبد البـر) مع القشتاليين فى معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين . ورغم انتصار المسلمين فى موقعة كازورلا

---

(٧٣) محمد عبد الله عنان ، وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، مدريد ، العددان ١ - ٢ ، ١٩٥٤ ، ص ٣٨ ، ٤٥ - أحمد الطوخى ، مظـاهر الحضارة ، ص ١٧ وما يليها - يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٤ -
Luis Suárez Fernández, «Juan II y la frontera de Granada», Valladolid, 1954, páginas 39-42.

(٧٤) يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٥ .

(٧٥) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦١ .

الا أن قـائدهم ابن سراج سقط شهيدا فى هذه المعركة فحزنت غرناطة لفقـده ، لحسن بلائه ولما اتصف به من فروسية وشجاعة (٧٦) .

وعلى الرغم من تصدى الأيسر للقشتاليين وانتصاره عليهم عدة مرات الا أنه لم يسلم من مؤامرات خصومه له ، وكان فريق من خصومه من السادة الفرسان يلوذون بحماية ملك قشتالة وعلى رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثانى وابن عم الأيسر وهو المعروف فى المصادر القشتالية بابن اسماعيل ، فى حين ناصر فريق آخر من زعماء المريـة الأمير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله المعروف بالأحنف . ونجح الأحنف فى دخول غرناطة فى سنة ٨٤٥ – ٨٤٦ هـ (١٤٤١ – ١٤٤٢ م) ونادى بنفسه ملكا (٧٧) .

ولكن بنى سراج وعلى رأسهم الوزير ابن عبد البر ، لـم يكفوا عن معـارضة الأحنف ، وكان ابن عبد البر بن سراج يقيم فى ذلك الوقت فى حصن مونتى فريو الواقع شمال غربى غرناطة ، وكان يؤيد الأمير يوسف (ابن اسماعيل) المقيم فى بلاط قشتالة .

وتعتبر هذه الفترة من تاريخ غرناطة أكثر الفترات غموضا واضطرابا وتعقيدا فقد اختلف فى سرد تفاصيلها كل من تصدى للكتابة عنها وأهمهم الأستاذ **محمد عبد الله عنـان** والأستاذ الدكتور **أحمد الطوخى** ، والأستـاذ **يوسف شكرى فرحات** ، ولا يهمنا من كل ذلك سوى تتبع دور بنى سراج ، فهذا كله يخرج عن دائرة موضوعنا .

ويتـفق المـؤرخون على أن الصراع الـذى دار بين « ابن اسماعيـل » (٧٨)

---

(٧٦) عن La Fuente Alcántara ارجع الى محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ١٦١ ، ويذكر الأستاذ اسماعيل العربى مترجم كتـاب واشنطن ايرفينج أن الوزير الجديد للأيسر من بنى سراج هو «عبد البر بن سراج» وأنه ابن الوزير السابق يوسف بن سراج ، وأنه أبلى بلاء حسنا فى المعارك التى خاضها الايسر مع القشتاليين عقب مهاجمة هؤلاء لأراضى غرناطة الشرقية وقد هزمهم جيشه بقيـادة عبد البر ، ثم هزمهم عند مدينة ارشذونة وقتل وأسر منهم عددا كبـيرا (٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م) . وفى السنة التالية سار الأيسر لقتـال النصارى عند وادى آش وهزمهم فى عدة معارك . وفى سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) نشبت معركة بين المسلمين والقشتاليين على مقربة من كازورلا أصيب فيها الطرفـان بخسائر جسيمة وانتهت بانتصار المسلمين ، وهنـا يذكر الاستاذ اسماعيـل العربى أن المسلمين رغم انتصارهم فقدوا وزيرهم عبد البر ورجع الى La Fuente Alcántara ، ولكن بالرجوع الى الاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتـابه نهاية الاندلس ، نجده يستقى معلوماته من نفس المصدر الاسبانى لافونتى القنطرة ، فيذكر أن الذى توفى هو ابن الوزير «ابن عبد البر» وليس هو شخصيا بدليل أنه سيظهر فى الأحداث التاريخية فيما بعد هذه المعركة (ارجع الى كتاب قصر الحمراء فى الأدب والتاريخ ، ص ١٥١ حاشية (١) ، والى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٣) .

(٧٧) تدل على ذلك وثيقة عربية تتمثل فى خطاب موجه منه الى ملك قشتـالة فى ذى القعدة سنة ٨٤٦ هـ (مارس ١٤٤٣ م) يشير فيه الى بعض المشاكل القائمة بين البلدين وقد نشر هذا الخطاب مع صورته الفوتوغرافية فى كتاب نبذة العصر ، المنشور بعناية معهد فرانكو بتطوان ، ص ٧٦ – ٧٨ .

(٧٨) يذكر واشنطن ايرفينج أن خلافا نشب بين الايسر وبين بنى سراج ، فتخلوا عن مساندته واعتبروه غير صالح للحكم ، ولجأوا الى مونت فريو ، ومن هناك بـدأ بنو سراج يسانـدون =

و «الأحنف» اللذين تبادلا الجلوس على عرش غرناطة عدة مرات قد انهك قوى الأهالى وأضعف من قوة المسلمين فى الاندلس ، وانتهى ذلك الصراع بتولى السلطان سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثانى خلفا للسلطان الأحنف الذى استمر فى الحكم حتى سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م) فى قول (٧٩) فى حين يرى فريق آخر من المؤرخين أن الأمير سعد هو ابن اسماعيل ، ابن شقيق السلطان الأيسر وأنه تولى عرش غرناطة بعد الأحنف مباشرة (٨٠) .

وبتولى السلطان سعد عرش غرناطة ازدادت الاضطرابات فى البلاد لأنه حاول أن يتخلص من «بنى سراج» الذين كانوا يناصبونه العداء ، فعمد الى قتل بعض زعمائهم ومن بينهم وزيره مفرج (سنة ٨٦٦ هـ/١٤٦٢ م) فهرب ولداه محمد وعلى من بنى سراج الى مالقة وبايعا أميرها يوسف النصرى الذى أعلن استقلاله فى مالقة ، وزحف الى غرناطة (٨١) ، ثم مات يوسف النصرى سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٤ م) فتنفس سعد لوفاته الصعداء ولكن الى حين ، ذلك أن بنى سراج اتصلوا بابنه أبى الحسن وحرضوه على الثورة على أبيه . ونحن نستقى هذه

= «ابن اسماعيل» . وكاتب ابن عبد البر ، ابن اسماعيل الذى كان فى ذلك الوقت ملتجئاً عند ملك قشتالة يدعوه للالتحاق بمعسكره ويعرض عليه مساندته ولم يتردد ابن اسماعيل فى الاستجابة السريعة ، فرحل من قشتالة ووصل الى مونت فريو حيث بايعه ابن عبد البر بن سراج ، وأنصاره وكان معظمهم من بنى سراج ملكا على غرناطة . كما أشار ايرفينج الى صراع شديد دار بين بنى سراج وأسرة بنى بنيغش los Venegas وهى أسرة نصرانية الأصل دخلت الاسلام ، وعاد بعض أفرادها الى النصرانية عقب سقوط غرناطة . ومن أشهرهم الوزير «أبو القاسم بن رضوان بنيغش الذى كان أبوه على خلاف مع الوزير ابن عبد البر بن سراج ، أما أبو القاسم فقد تنصر هو ومعظم أفراد أسرته عند دخول الاسبان غرناطة ، وقد اشتهرت هذه الأسرة فى تاريخ اسبانيا الحديث وأنجبت عددا من القادة والأحبار (ايرفينج قصر الحمراء ، ص ١٥٠ وما يليها - نبذة العصر ، ص ٤٦ حاشية (١) - عنان ، ص ١٩٥) .

(٧٩) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٤ -
Luis Seco de Lucena, «Rectificación a la historia de los últimos nasries», **Al-Andalus**, vol. XVII, fasc. I.

(٨٠) يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٥ . فى حين يذكر أ. د. أحمد الطوخى أنه فى بداية عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) عاد الايسر الى الحكم خلفا للسلطان الأحنف للمرة الرابعة ، كذلك يذكر أن اضطراب الأوضاع الداخلية فى غرناطة بلغ درجة كبيرة الى حد أنه قد تعاقب على عرشها خلال القرن التاسع الهجرى (١٥ م) اثنى عشر سلطانا كان بعضهم يتولى العرش أكثر من مرة (أحمد الطوخى ، مظاهر الحضارة ص ١٨) أما أ. د. محمد عبده حتاملة فيذكر أن السلطن محمد الايسر تولى الحكم فى غرناطة فى فتراة مختلفة حددها بالفترة ما بين عامى ٨٢٢ - ٨٣١ هـ (١٤١٩ - ١٤٢٧ م) والفترة من عام ٨٣٣ ـ ٨٣٥ هـ (١٤٢٩ ـ ١٤٣١ م) والفترة من عام ٨٣٥ ـ ٨٤٨ هـ (١٤٣١ ـ ١٤٤٤ م) كما يذكر أنه خلفه على العرش السلطان سعد بن على الذى تشير اليه المراجع الاسبانية بلقب ciriza وأحيانا أخرى بلقب «ابن اسماعيل» والمراد به هو الملك اسماعيل الاول ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر (ارجع الى محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٩) .

(٨١) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158.

الاخبار من رواية **المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل الحنفى** الذى زار المغرب والاندلس فى هذه الفترة المضطربة ، وقد دون لنا كل مشاهداته فى مؤلفه المسمى «كتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم» (٨٢) ، ويذكر عبد الباسط بن خليل أن سلطان الاندلس فى سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ – ١٤٦٣ م) ، كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر ، وأنه ما كاد يجلس على العرش حتى ثـار عليه ولـده أبو الحسن بتحريض بنى سراج ، وأخرجـه عن غرناطة وامتلكها ، فسار سعد الى مالقة وحكم أبو الحسن مكانه . ولما اشتد ضغط النصارى على الاندلس ، عـاد أبو الحسن فعقد الصلح مـع أبيه وأطلق سراحه ، واختار سعد الاقـامة فى المرية فلم يعترض ولده ، ولـم يلبث أن توفى الأب فى أواخر هذا العام وعندئذ خلص العرش لأبى الحسن (٨٣) .

عانت مملكة غرنـاطة الى جانب الصراع الـدموى العنيف بين أفراد البيت النصرى من أجل الوصول الى العرش والحفـاظ عليه ، صراعـا آخر اضطرم واشتعل بسبب التنافس بين الأسرات النبيلة القوية ، وعلى رأسها «بنى سراج» وبنى **الثغرى** Tigris وبنى أضحى (٨٤) للظفر بالوزارة .

---

(٨٢) توجد نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتـاب بمكتبة الفاتيكـان الرسولية برقمى ٧٢٨ ، ٧٢٩ فى مجلدين . وقد نقل العلامة المستشرق O. Della Vida ما ورد فى كتاب هذا الرحالة المصرى من أخبار الأندلس ، ونشره مجتمعا فى مقال عنوانه

«Il Regno de Granata nel 1463-66 nei recordi di un viagiattero egipziano, **Al-Andalus**, vol. I, 1933, fasc. II.

(٨٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٧ . ويذكر الاستـاذ يوسف شكرى فرحات أن السلطـان سعد توفى فى سجنه سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٤ م) . (ارجع الى غرنـاطة فى ظل بنى الأحمر ، ص ٥٦) . أما أ. د. محمد عبده حتـاملة فقد أورد فى كتـابه «محنة مسلمى الأندلس» رواية المـؤرخ الرحالة المصرى عبد الباسط بن خليـل كما أورد رواية أخرى هى ما وردت لـدى Hernando de Baeza المؤرخ الاسبانى المعاصر للأحداث . ويذكر د. حتاملة أن الرواية الاسبانية تذهب الى أن أبا الحسن المعروف لديهم باسم مولاى الحسن Muley Hacén أقـدم على خلع أبيه سعد عن عرش غرناطة فى سنة ٨٦٦ هـ (١٤٦١ م) ليحل محله ، وانه نفى والده الى شلوبانية Salobreña حيث توفى بعد قليـل فنقل جثمانه الى غرناطة ودفن فى المقبرة الملكية (محمد عبده حتاملة المرجع السابق ، ص ٧) .

(٨٤) يرى الأستاذ محمد عبد الله عنان أن آل الثغرى كانوا من البربر من قبيلة غمارة (عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٦٦) كما نقـل لنا رأى المستشرق الاسبانى جاينجوس الذى يرى فى ترجمته لنفح الطيب أن الثغريين هم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) الى غرناطة بعد سقوطها فى أيدى الاسبان . أمـا الأمير شكيب أرسلان فيعتقد أن الاسم «الثغرى» مـا هو الا تحريف من بنى الزغبى نسبة الى قبيلة زغبة . أما بنـو «أضحى» أو ضحى فهم من سادة غرناطة ، وكانوا قد لعبوا دورا هاما فى التاريخ الاندلسى ومن أشهرهم «أبو الحسن على بن عمر بن أضحى» أحد ثوار الاندلس البارزين فى أواخر العصر المرابطى وكان قد ثار بغرناطة فى سنة ٥٣٩ هـ ولكنه لم يستطع الصمود ضدهم فاعتصم بالقصبة وتوفى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . وكـان الشاعر محمد بن عيسى بن عبد الملك الزهرى قد امتدحه عندمـا دخل غرناطة (ابن الخطيب ، الاحاطـة ، جـ ٢ ، ص ٤٩٤ ، ٥٠٤) وكذلك الشاعر أبو بكر المخزومى الاعمى المورورى (المدورى) الذى التقاه بغرناطة عندما كان ابن أضحى يتولى قضاءها (المصدر السابق جـ ١ ، ص ٤٢٧) . أما الفقيه عبد الرحمن بن =

وكان عهد أبى الحسن على بن سعد مثلا حيـاً للفوضى الضاربة أطنابها فى أنحاء سلطنة غرناطة ، التى نتجت عن الصراعات التى نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة .

فأبو الحسن بن سعد نجح فى الظفر بعرش غرناطة بعد صراع مرير ضد والده السلطان سعد بن الأحمر كما سبق أن ذكرنا ، ورغم انتهاء هذه المعركة لصالحه الا أن الصراعات ظلت متواصلة لم تتوقف ، ذلك أنه كان لأبى الحسن أخوان ينافسـانه على السلطنـة همـا أبو عبد الله محمد المـدعو بالزغـل El Zagal أى الشجاع ، وأبو الحجاج يوسف الذى توفى فى سنة ٨٧١ - ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) بسبب الطاعون وأدى تطلع الزغـل الى السلطنة الى نشوب صراع دموى عنيف بين أبى الحسن وبين أخيه الزغـل . ولم يكن ذلك الصراع بين الأخـوين هو الصراع السياسى الـوحيد للظفر بدست السلطنة ، فقد امتـد الصراع واتسع نطـاقه فى البيت الحاكم بحيث أدرك أبنـاء السلطان أبى الحسن . وقصة هذا الصراع الأخير تتلخص فى أن أبا الحسن على كان قد تزوج من ابنة عمه الأميرة عائشة ابنة السلطان محمد الأيسر (٨٥) . وقد أثمر هذا الزواج عن ثلاثة أبناء هم على التوالى ، أبو عبد الله محمد الذى حرفت المصادر الاسبانية كنيته فجعلتها Boabdil وأبو الحجاج يوسف ، وعائشة . واتفق أن أغـار المسلمون فى احدى معـاركهم ضد الاسبان على أرض قريبة من قرطبـة وعادوا مثقلين بالغنـائم والسبى ، وكان بين السبى فتـاة بارعة الجمال بيعت فى غرناطة بيع الرقيق ،

= عبد الله الخثعمى فقد امتدحه عندما دخل غرناطة ووصفه ابن الخطيب عند دخول هذا الفقيه الى غرناطة بأنه كان قاضيها وريسها (نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٩) . كما عرف أبو الحسن بن أضحى بتفوقه فى مجال الفقه ، ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه الفقيه محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبى زمنين المرى (نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦٢) . وربمـا انتسبوا الى محمد بن أضحى بن عبد النطيف الهمدانى زعيم العصبية العربية فى غرناطة بعد مصرع سعيد بن سليمان بن جودى فى ذى القعدة سنة ٢٨٤ هـ (ابن حيان ، تحقيق انطونية ، ص ٦١) .

(٨٥) نبذة العصر ، ص ٤٦ . أما الأميرة عائشة زوجة السلطان أبى الحسن على ، فقد تشكك المستشرق الاسبانى لويس سيكو دى لوثينا Luis Seco de Lucena فى بحثه القيم «La sultana madre de Boabdil» الذى نشره فى مجلـة **Al-Andalus**, vol. XII, 1947 من ص ٣٥٩ - ٣٩٠ فى حقيقة اسمها وافترض أنها فاطمة بنت محمد الأحنف مستندا فى ذلك الى رسوم بيع وشراء ملكية نشر نصوصها بالمجلة المذكورة . وقد وافقته على هذا الرأى المؤرخة راشيل آرييه التى استخدمت اسم «فاطمة» عند حديثها عن أم السلطان أبى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة ، وذلك فى بحثها عن بنـى سراج بيـن الـواقـع التـاريخى والاسطـورة الشعبيـة ، ارجـع الى Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158 ولكن الاستاذين محمد عبد الله عنان والدكتور محمد عبده حتاملة رفضا هذا الاحتمال بعد أن نـاقشاه ومالا الى ترجيح أن اسمها هو الاسم المعـروف والشهير «عـائشة» (لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ارجع الى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ١٩٧ - محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس ، ص ٨) ولعل بقاء الاسم فى الوقت الحاضر على منظرة بقصر قمارش وهى منظرة در عايشة Daraja ينهض دليلا على ذلك» .

هذه الفتاة هى ايزابيل دى سوليس Isabel de Solís ، كانت ابنة القائد الفارس دون سانشو خيمينث دى سوليس Don Sancho Ximenez de Solís الذى لقى مصرعه فى احدى المعارك التى خاضها ضد المسلمين (٨٦) ، وألحقت ايزابيل وصيفة بقصر الحمراء واعتنقت الاسلام وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح . ولم تلبث أن وقعت موقعا حسنا عند السلطان أبى الحسن على فتسرى بها وتزوجها وآثرها على زوجته عائشة التى تلقبت منذ ذلك الحين «بالحرة» تمييزا لها عن ثريا الاسبانية ، وقد أثمر هذا الزواج الأخير عن ثلاثة أبناء أكبرهم كان يسمى سعد والثانى نصر أما الثالث فقد توفى فى أحد الأوبئة (٨٧) .

ويعلق **المؤرخ المجهول صاحب نبذة العصر** على تلك الأحداث بقوله «فمن جملة انهماكه أنه اصطفى على زوجته رومية اسمها ثريا وهجر ابنة عمه وأولادها منه ، فأدرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على أزواجهم ووقع بينهما نزاع كثير وقام الأولاد محمد ويوسف مع أمهما وغلظت العداوة بينهم ...» (٨٨) .

ومن هذا النص يتضح لنا أن حربا خفية غير معلنة بدأت تشتعل بين الزوجتين الحرة ، وأم الولد ثريا ، وأصبحت كل منهما تنافس الأخرى من أجل اسناد ولاية العهد الى ولدها دون الأخرى ، وأدى ذلك الى اضطراب الأوضاع فى قصور الحمراء ، وهز كيان البيت الحاكم وعجل بانحلال مملكة غرناطة ومهد لسقوطها . وقد نجحت ثريا الاسبانية فى السيطرة على زوجها السلطان أبى الحسن تماما فأقنعته باقصاء السيدة عائشة الحرة وولديها عن كل عطف ورعاية ، ونجحت فى اقناع زوجها باعتقال زوجته الأولى فزج بها مع ولديها فى برج قمارش أمنع أبراج قصر الحمراء ، وعاملهم جميعا بمنتهى القسوة والعنف.

---

(٨٦) يرى البعض أن والدها كان يشغل منصب قائد صخرة مرتش Alcaide de la Peña وعن تفاصيل المعارك بين المسلمين والقشتاليين فى ذلك الوقت ارجع الى
J. Condé, «Historia de la dominación de los árabes en España», t. III, Madrid, 1821, pp. 240-246.

(٨٧) نبذة العصر ، ص ٤٩ – محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس ، ص ١٤ ، وقد أشارت راشيل آرييه اشارة بسيطة الى أن سعداً ونصراً ولدى أبى الحسن على من ثريا قد بقيا فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة وارتدا الى المسيحية وعرفا بدون فرناندو ، ودون خوان أميرى غرناطة (Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158) فى حين أن د. محمد عبده حتاملة أفرد لهما جزءاً من كتابه «محنة مسلمى الاندلس» للحديث عن مصيرهما وأهم المناطق التى أنعم الملكان الكاثوليكيان بها عليهما وأهم عقاراتهما كما تحدث عن السيدات الاسبانيات اللاتى تزوج منهن كل من سعد ونصر وأنسابهن (لمزيد من التفاصيل ، ارجع الى محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس ، ص ٧٧ – ٩٠) وقد اعتمد فى دراسته القيمة على وثائق ومصادر اسبانية معاصرة لتلك الأحداث .

(٨٨) نبذة العصر ، ص ٤٩ ، وارجع كذلك الى
Julio Caro Baroja, «Los moriscos del reino de Granada», Madrid, 1991, p. 39

وقد أثار تصرف السلطان أبى الحسن هذا غضب البيوتات الاندلسية الكبيرة التى كانت تؤثر السلطانة الشرعية وولديها بالعطف والتأييد . وتصف المصادر العربية «السيدة عائشة الحرة» بأنها شجاعة وصلبة كالرجال ، فلم تستسلم الى مصيرها التعس بـل عملت على الاتصال بأنصارها وعلى رأسهم «بنى سراج» أقوى أسر غرناطة لتخليصها من الأسر ، ودبروا لها وسيلة للفرار من القصر ، وتشير المصادر العربية الى نجاح الأميرين فى الفرار من القصر دون أمهما الى وداى آش ، فى حين تـؤكد الرواية القشتـالية فرارهم جميعـا بمساعدة بنـى سراج (٨٩) .

ولم يغفر السلطان أبو الحسن هذا الموقف لبنى سراج أبدا ، وكان ذلك الموقف المساند لولديه من السيدة عائشة الحرة ، الـدافع الأساسى وراء نكبة رؤساء هذه الأسرة الذين انتهى أمرهم بالقتل فى أحد قاعت قصر الحمراء . وكانت هذه النكبة من البشاعة والقسوة بحيث أصبحت مجالا خصبا لروايات وأقاصيص شعبية سنتحدث عنها فى الصفحات التالية .

بدأ بنو سراج ، ومنذ فرار الأميرين من قصر الحمراء ، يتخذون موقفا جديدا فى سياسة غرناطة ، يتمثل فى تأييد الأمير أبى عبد الله محمد المعروف فى المصادر الاسبـانيـة بـاسم Muley Baudili أو Beaudili - Baudili أو Boabdil ضد والده السلطان أبى الحسن على .

ولسنا هنا فى مجال شرح تفاصيل الصراع الذى نشب بين أبى الحسن على ، وأخيه الزغل ، ولا تفاصيل الصراع بينه وبين ولـده أبى عبد الله محمد ، وما يهمنا توضيحه هو أنه فى هذا الوقت الذى كان أفراد البيت الحاكم فى غرنـاطة يتقاتلون ويتناحرون كانت ايزابيلا ملكة قشتالة قد تزوجت من فرديناند الرابع ملك أراجون فتوحدت اسبانيا المسيحية (٩٠) ، وازدادت قوتها وبدأت تخطط

---

(٨٩) نبذة العصر ، ص ٦٠ – محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٠١ – أحمد مختار العبـادى ، السيد عبد العزيز سالم ، تـاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، جـ ٢ ، الاسكندرية بدون تاريخ ، ص ٣٦٦ .

(٩٠) فرديناند الكاثوليكى أو فرناندو الرابع ، هو ابن خوان الاول ملك نبرة ، الذى عرف فيما بعد بالملك خوان الثانى ملك أرغون . وقـد ولد فرديناند سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) من زوجـة خوان الثانية ، خوانا انريكيث ابنة أمير بحر قشتالة . تولى فرديناند عرش مملكة أرغون منذ عام ٨٤٤ ـ ٩٢٢ هـ (١٤٧٩ ـ ١٥١٦ م) كما اعتلى عرش مملكة نابلى منذ عام ٩١٠ ـ ٩٢٢ هـ (١٥٠٤ ـ ١٥١٦ م) وصقلية ٨٧٣ ـ ٩٢٢ هـ (١٤٦٨ ـ ١٥١٦ م) وقشتالة من ٨٧٩ ـ ٩١٠ هـ (١٤٧٤ ـ ١٥٠٤ م) ، ثم تزوج من زوجته ايزابيلا الأولى ملكة قشتالة سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) ٠ وقاد الحرب ضد المسلمين فى مملكة غرناطة حتى سقوطها سنة ١٤٩٢ م . وعند وفاة زوجته ايزابيلا الكـاثوليكية عام ١٥٠٦ م تزوج من الفرنسية خيرمانا دى فوا ولمزيد من التفاصيل عن حياته وأعماله ارجع الى (محمد عبده حتاملة ، التنصير القسرى لمسلمى الاندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص ١٤
Luis Suárez Fernández, «Historia de España», Madrid, 1970, capt. XLVIII, pá- =

لتصفية الاسلام نهائيا من الاندلس . أما حكام غرناطة فبدلا من أن يتداركوا الموقف الخطير ، ويلو ذوا بالوحدة فقد اقبلوا على التحالف مع ملوك المسيحية الواحد ضد الآخر .

وتمكن الأمير أبو عبد الله محمد من مولاى أبى الحسن فانتزع عرش غرناطة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) بمساعدة بنى سراج (٩١) ، ولاذ أبوه أبو الحسن على الى أخيه الزغل بمالقة الذى كان قد عقد هدنة معه بعد صراع طويل. وحدث أن انهزم الأمير أبو عبد الله محمد أمام الجيوش القشتالية فى ظاهر قلعة اللسانة Lucena سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ووقع أسيرا فى يد الاسبان ، ولكن الملكين الكاثوليكيين وافقا على اطلاق سراحه بشرط أن يبذل لهما الطاعة ويدفع جزية سنوية ويتعهد بالافراج عن أربعمائة من الرهائن النصارى فى غرناطة . وكانت هذه المعاهدة بمثابة حجر الأساس فى القضاء على مملكة غرناطة ، وزاد من تعقيد الأمور ، احتدام الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة ، فقد تولى الزغل حكم غرناطة خلال فترة أسر ابن أخيه أبى عبد الله محمد ، واشتد الصراع بينه وبين الأمير يوسف أبى الحجاج بن أبى الحسن شقيق أبى عبد الله محمد ، فلما أطلق الملكان الكاثوليكيان سراح أبى عبد الله ، تجدد الصراع بينه وبين عمه الزغل ، وكان ربض البيازين فى الشمال الشرقى من غرناطة مسرحا لهذا الصراع ، واستغل العدو هذه الفرصة ، وازداد تكالبه على التهام ما بقى من دولة الاسلام فى الاندلس (٩٢) . فتساقطت فى يده معاقل غرناطة الواحد بعد الآخر بدءاً بالحامة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) وحصنا قرطبة وذكوين وعدة حصون أخرى فى الشمال الغربى من مالقة سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، وتمكن

= ginas 681-682.

أما ايزابيل فقد ولدت فى مدريغال دى التاس تورس عام ١٤٥١ م. وكانت ابنة خوان الثانى ملك قشتالة ، وأمها هى ايزابيلا البرتغالية ، ابنة حفيد خوان ملك البرتغال . تزوجت من فرديناند أمير أرغون وصقلية سنة ١٤٦٩ م . وعرفا عندئذ بأمير قشتالة . وعندما توفى شقيقها الملك انريكى الرابع عام ١٤٧٤ م ، عرفت هى وزوجها بملكى قشتالة وأرغون (لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة ، التنصير القسرى ، ص ١٦ —

T. de Azcona, «Isabel la Católica», Madrid, 1964.

(٩١) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 158.

(٩٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث الاخيرة فى عهد مملكة بنى الاحمر ، والحروب الأهلية التى تخللتها ارجع الى المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٢٥٨ وما يليها — نبذة العصر ، ص ١٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٩٤ — ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ — وقد اتهم مؤلف نبذة العصر الزغل وشك فى ولائه للاسلام (ص ٣٣) لكن الاستاذ محمد عبد الله عنان دافع عنه مشيرا الى أنه لم يكن باستطاعته أن يضع حداً لأسباب ضعف السنين التى سبقته (نهاية الاندلس ، ص ٢٨٨) كما دافع عن أبى عبد الله الصغير ووصف بطولاته الأخيرة (ص ٢٨٤ وما يليها) .

العدو من عزل مدينة رندة التى لم تلبث أن سقطت بدورها فى جمادى الأولى من نفس العام ٨٩٠ هـ ، وبسقوطها انهارت المقاومة فى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة ففى سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) استولى العدو على لوشة كما انتهز فرناندو الرابع احتدام الصراع بين الزغل وابن أخيه أبى عبد الله سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٦/ ١٤٨٧م) فهاجم مدينة بلش مالقة Velez Malaga واستولى عليها . ولما كان الملكان الكاثوليكيان قد عقدا معاهدة مع أبى عبد الله محمد ، تكفل بمقتضاها لهما ببذل الطاعة والتبعية فقد آثرا عندئذ مهاجمة القواعد الشرقية والجنوبية التى كان يحكمها الزغل الذى كان مسيطرا على وادى آش واعمالها ، ولم تلبث المدن الخاضعة له أن تساقطت فى أيدى العدو الواحدة بعد الأخرى الى أن سقطت وادى آش آخر معاقله فى أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) بعد أن أدرك الزغل عدم جدوى المقاومة (٩٣) . وهكذا لم يتبق أمام الملكين الكاثوليكيين سوى غرناطة ، الصفحة الأخيرة التى كان عليهما أن يطوياها طى الكتاب ليختتما بذلك ثمانية قرون استغرقتها حركة الاسترداد المسيحى التى بدأت منذ الفتح الاسلامى للأندلس . وفى سنة ٨٩٥ هـ أرسل الملكان الكاثوليكيان الى السلطان أبى عبد الله محمد يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء وقصور صاحبت مقر السلطان والحكم ، وسمحوا له بأن يقيم فى غرناطة تحت طاعتهما وحمايتهما . وأبدى السلطان الغرناطى رفضه لهذا الطلب واضطر الى القتال ، ولكن انتصاراته الهزيلة فى أندرش وشلوبانية لم تفت فى عضد الملكين الكاثوليكيين اللذين حطا بقواتهما بكل عدتها وعديدها على مدينة غرناطة ، واضطر سلطان غرناطة فى نهاية الأمر الى التسليم بعد أن عقد مع الملكين الكاثوليكيين معاهدة أقسما باحترامها دون أى تغيير فى بنودها ، ولكنهما لم يحترما هذا القسم كما أثبتت الأيام وأكد التاريخ (٩٤) .

---

(٩٣) عن هذه الأحداث الاخيرة لغرناطة قبيل السقوط ارجع الى عنان ، ص ١٨٨ ، ٢٧١ – فون شاك ، الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٠ وما يليها – يوسف شكرى فرحات ، غرناطة ، ص ٥٦ وما يليها – عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية الاسلامية فى الاندلس بعد سقوط غرناطة ، بغداد ، ١٩٨٠ ص ٨ – ٩ – Julio Caro Baroja, «Los moriscos», pp. 40-41.

(٩٤) عن معاهدة التسليم وأهم بنودها ارجع الى نبذة العصر ، ص ١٢٠ وما يليها – محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٤٥ وما يليها – محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمى الاندلس، ص ٥٣ ــ ٥٦ – عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٥ . وعن سقوط غرناطة ودخول الملكين الكاثوليكيين فيها ارجع الى Joseph Lozana, «Els moriscos: un mon a descubrir», collection Awrāq, núm. 1 Madrid, 1993, p. 88.

وعن عدم وفاء الملكين الكاثوليكيين بالتزاماتهما وعهودهما ونقضهما لمعاهدة التسليم ارجع الى نور الدين الصغير ، مأساة غرناطة وأثرها فى الوعى التاريخى العربى والاسلامى ، من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ١٤١ ، عادل سعيد بشتاوى ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

وقبل أن نختتم هذه الفترة التاريخية نود أن نشير الى فارسين من أشهر قادة فرسان بنى سراج ، بخــلاف يوسف بن سراج وابن عبد البــر بن سراج . هذان الفارسان تعرفنا عليهما من خلال النقوش المحفورة على شاهدى قبريهما .

أما النقش الاول فهو محفور على شاهد قبر للفــارس «**أبى اسحق** ابن الشيخ الوزير الجليــل المعظم **أبى عبد الله بن السراج**» المتوفى فى ١٣ محرم سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ، وكان قائدا من أفضل القواد بمدينة رندة .

ويذكر **اميليو غرثية جومث** أن هذا الشاهد ، عثر عليه ليفى بروفنسال ، وكان لا يعدو مجموعة من القطع الرخامية المفتتة ، لم تتح لليفى بروفنسال أن يتمكن من قراءة النقش الجنائزى لتنــاثر القطع ، ثم آلت هذه القطع الى دون بيدرو دى ألبا فأرسلها بدوره الى أحد قادة الجيش بالجزائر الذى أعطاها لسكرتيره العربى فقرأها له ونص النقش المحفور على الشاهد كما يلى :

(بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آلــه . هذا قبــر الشيخ القــائد الوزير الجليــل ، المجاهد ، الأمضى ، الآسعد ، الآصعد ، الأحفــل ، الأفضل ، الأكمل ، المعظم ، الموقر ، ذى الهمم الآبيــة والشيم الزكية المرتقى بمكارمه وحسن مذاهبه الى الرتب السنية ، المقدسى المرحوم أبى اسحق بن الشيخ الوزير ، الجليل ، المعظم ، الماجد ، الحسيب ، الأصيل ، الأحفل الآفضل ، المبرور ، المرحوم أبى عبد الله بن السراج (قدس الله روحه وبرد ضريحه) . كان رحمه الله صدرا من صدور القواد ، مستعدا للجهاد بارتباط الجياد . لم يزل على ذلك الى أن قبضه الله اليه ، واختار له ما لديه بمدينة رندة (حرسها الله) قائدا على قصبتها مثــاغرا لحوزتها بتــاريخ الثــالث عشر لمحرم ، من عــام ستة وستين وسبعمايه . ونقل الى الحضرة العلية غرناطة ، يحرسها الله تعــالى منشأ قراره وأصل داره فدفن بهذه الجبانة من خارجها (تلقاه الله بالتحية والرضوان وجدد عليه الرحمة بتجدد الأحيان ، وكــل من عليها فــان فسبحان وارث الأرض ومن عليهــا وهو خير الوارثين ، وصلى الله على سيدنــا ومولانا محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا) (٩٥).

ونستنتج من هذا النقش بعض **الحقائق** ، منها أن بنى سراج لم يتولوا الوزارة لملوك بنى الأحمر بداية من عهد الأيسر فحسب ، بل أن منهم من كان يتولى منصب الوزارة قبل عهد الأيسر ، فمن هذا النقش نكتشف وجود وزيرين أولهما **الأب** أبى عبد الله بن السراج ، وثانيهما **الابن** أبى اسحق بن أبى عبد الله بن السراج ، واذا

---

(٩٥) Emilio García Gómez, «Sobre los epitafios de dos abencerrajes», **Al-Andalus**, 1942, pp. 287-288.

كان الابن أبو اسحق قد توفى سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) فنفترض أنه تولى الوزارة فى عهد السلطان أبو عبد الله محمد بن أبى الـوليد اسماعيل الذى تولى (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ) أو أخوه السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبى الوليد اسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) أو السلطان محمد الخامس (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) أو اسماعيل الثانى سنة ٧٦٠ هـ أو فى الامارة الثانية لمحمد الخامس (٧٦٢ - ٧٩٤ هـ) .

أما والده الوزير أبو عبد الله بن السراج فنرجح أنه كان وزيرا لأحد سلاطين بنى الأحمر فى الفترة من ٦٥٠ - ٧٠٠ هـ ، ونرجح أن يكون ذلك فى عهـد محمد الفقيه الثـانى (٦٧٢ - ٧٠١ هـ/١٢٧٣ - ١٣٠١ م) وان لـم تكن المصادر قـد أوردت أى اشارة لبنى سراج كوزراء فى هذه الفترة .

أما النقش الثـانى الذى درسه ليفى بروفنسال فى مجموعتـه تحت رقم ١٨٠ فيتعلق بقائد من بنى سراج هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن السراج المتوفى فى سقطة لجواد فى ٢ شوال سنة ٨٠٦ هـ (١٤ أبريل ١٤٠٤ م) . وقد ظهر هذا النقش فى مجموعة دون ماريانو ألونسو فى غرناطة ، وبفضل وثيقة محفوظة فى مكتبـة فرانشسكو كوديرة التى تحتويها اليوم مكتبة ميجيل آسين استطاع اميليو غرثية جومث اعطاه مقاسات شاهد هذا القبر (٩٦) .

(٣)

بنـو سراج بعـد سقوط غرنـاطة

بعد رحيل السلطان أبى عبد الله محمد من غرناطة الى بلاد المغرب ، رحل معه عدد كبير من المسلمين فى حين آثر السواد الأعظم عدم مبارحة غرناطة مصدقين الوعود الزائفة التى سجلها الملكان الكاثوليكيان فى بنود المعاهدة التى وقعاها مع السلطان المخلوع أبى عبد الله واثقين بأنهمـا لن ينكثـا بقسمهما وتعهدهما بتنفيذه ، الا أن التعصب الأعمى والكراهية الشديدة للاسلام دفعتهما الى النكث بعهودهما والعمل على القضاء على الاسلام فى اسبانيا قضاء مبرما وفى سبيل تحقيق ذلك الهدف اصطنع الاسبان سياسة التنكيل بالعناصر المسلمة واضطهادها ودفعها الى التنصر (٩٧) ، بحيث عرفوا بالموريسكيين أو متنصرة المسلمين .

---

(٩٦) عن شاهد القبر الثانى ارجع الى
Emilio García Gómez, «Epitafios», p. 289. Rachel Arié, «Le Royaume», p. 156.
(٩٧) المقرى ، أزهار الرياض ، جـ ١ ، ص ٦٧ ، ٦٨ – نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٢٨٠ وما يليها نبذة العصر ، ص ١٢٨ – عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية ، ص ١٣ ـ ١٨ .

وما دمنا بصدد الحديث عن فترة ما بعد سقوط غرناطة ، فمن الواضح أن تاريخ الموريسكيين فى اسبانيا قد مر بثلاثة مراحل أساسية :

ا — **مرحلة الملكين الكاثوليكيين** ، وهى التى حاول الأندلسيون خلالها مواجهة الاضطهاد الذى تعرضوا له وتمسكوا بتنفيذ معاهدة التسليم التى تحفظ لهم حقوقهم ، وكان معظم الاضطهاد موجها اليهم من قبل رئيس الكنيسة الاسبانية الكاردينال خيمينث دى سيسنيروس Francisco Jimenez De Cisneros الذى أرغم أكثر من خمسين ألفا من المسلمين على التنصر سنة ٩٠٤ — ٩٠٥ هـ (١٤٩٩ م) كما أمر بالقبض على كبار فقهاء المسلمين والزج بهم فى غياهب السجون . وفى سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩ م) أصدر أمره بأن يسلم الموريسكيون كل ما لديهم من مخطوطات عربية ومصاحف واحراقها فى ساحة المدينة العامة عند باب الرملة ، ويقدر بعض المؤرخين هذه المؤلفات التى أحرقت بثمانين ألفا فى حين يبالغ البعض فى عددها فيقدرونها بمليون وخمسة آلاف كتاب ، كما أجبر الرجال من سكان ربض البيازين الذى تحول مسجدهم الجامع الى كنيسة سان سلفادور على الزواج من مسيحيات كما أجبرت الفتيات المسلمات على الزواج من اسبان مسيحيين بهدف القضاء النهائى على الاسلام ، وكانت هذه الاجراءات السبب الرئيسى وراء انتفاضة أهالى البيازين سنة ٩٠٥هـ (١٤٩٩م) ثم ثورة سكان البشرات Alpujarras الأولى سنة ٩٠٦هـ (١٥٠٠/١٥٠١م) وقد انتهت كلتا الثورتين بالفشل أمام سياسة القمع والارهاب التى اتبعها الاسبان (٩٨) .

ب — **مرحلة الملكين شارل الخامس وفيليب الثانى** وتتميز باستمرار اصدار القرارات التى تستهدف ادماج الموريسكيين فى المجتمع الاسبانى عن طريق ارغامهم على التنصر بكل الوسائل الوحشية .

---

(٩٨) عن هذه الأحداث ارجع الى محمد عبده حتاملة ، التنصير القسرى ، ص ٦٢ وما يليها — عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة ، ص ١٧ ـ ١٨ — على مظهر ، محاكم التفتيش ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٧٥ وما يليها — جمال عبد الكريم ، الموريسكيين : تاريخهم وأدبهم ، مجلة المؤرخ المصرى ، جامعة القاهرة ، العددان ٥ ، ٦ يناير ويوليو ١٩٩٠ ، ص ١٤ وما يليها — عادل بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، ص ١٠٨ ، وما يليها — محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين ١٦ ، ١٧ م ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩ ، ص ٥٣ — وارجع الى بحثى علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها ، من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ١١٣ وما يليها . وارجع كذلك الى بلقاسم درارجة ، الاندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش ، بحث من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية الاندلسية ج ٢ ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ٧٣ وما يليها . ويذكر لوى كارדياك أن المسيحيين بعد فشل ثورة البشرات كانوا يعيشون تحت خوف تجدد الثورة الموريسكية وقد تناقل الناس أنهم لا ينتظرون لهذا الأمر الا وقته المناسب وأنهم ساعون لجمع الأسلحة (لوى كارדياك ، الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون . المجابهة الجدلية ١٤٩٢ ـ ١٦٤٠ م ، زغوان ، ١٩٨٩ ، ص ٢٩) .

جـ – **مرحلة الملك فيليب الثالث** وهى المرحلة الأخيرة من تاريخ الموريسكيين التى انتهت باصدار قرار الطرد النهائى لباقى الموريسكيين من الأندلس (٩٩) .

وفى هذه المراحل الثلاثة قامت البقية الباقية من بنى سراج فى الآندلس ممن آثروا البقاء فى بلدهم ولم ينزحوا فى جملة من نزح منهم الى تونس أو المغرب بدور كبير ، لا سيما فى المرحلة الثانية التى تواكب عصر الملك فيليب الثانى (١٥٢٧ – ١٥٩٨ م) وهو العصر الذى تجدد فيه سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) القانون القديم الصادر فى عهد الامبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٣هـ (١٥٢٦م) ضد الموريسكيين ويقضى بتحريم اللغة والثياب الاسلامية ، وكان ذلك القانون بمثابة الضربة الأخيرة التى وجهت للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، اذ كان يعطى للموريسكيين الفرصة لتعلم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات ، لا يسمح بعدها لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يخاطب أحدا باللغة العربية ، كما منع هذا القانون النساء الموريسكيات من التحجب ، وأرغمهن على ارتداء المعاطف والقبعات كما حرم انشاد الأغانى القومية أو اقامة حفلات الزمر (الرقص العربى) أو الطرب بآلات عربية أو استخدام العادات والتقاليد الموريسكية وتحريم الخضاب بالحناء واستخدام الحمامات للاستحمام واستعمال الأسماء والألقاب العربية (١٠٠) . وللاسف لم تسعفنا المصادر العربية المعاصرة لتلك الأحداث بأى تفاصيل عن ذلك ، وكل ما وصلنا عن هذه الاجراءات القهرية يعتمد على ما زودتنا به الروايات الاسبانية المسيحية التى أوردت ما يشير الى أنه بخلاف موريسكى بلنسية الذين كان يتزعمهم كوزمى بن عامر المقرب من البلاط ، لم يتمكن أحد من الموريسكيين من الافلات من تنفيذ هذا القانون (١٠١) . وفى غرناطة بلغ اليأس بالموريسكيين أشده فاتفقوا فيما بينهم على الثورة دفاعا عن الذات قبل أن تنقطع بينهم وبين ماضيهم كل الصلات .

ولتصوير هذه الأوضاع اعتمد الأستاذ **محمد عبد الله عنان** على **مارمول** Marmol فى كتابه :

---

(٩٩) محمد رزوق ، الأندلسيون ، ص ٥٠ وارجع كذلك الى أنطونيو دومينقير هورتز وبرنارد بنثنت ، تاريخ مسلمى الاندلس ، الموريسكيون ، حياة ومأساة أقلية ، ترجمة عبد العال صالح طه ، قطر ، ١٩٨٨ ، ص ١٩ وما يليها .

(١٠٠) لمزيد من التفصيل عن هذا القانون ارجع الى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٦ ، ويذكر د. محمد عبده حتاملة أنه سبق هذا القانون سلسلة من الاجراءات والقوانين الجائرة أصدرها الملك فيليب الثانى منذ عام ١٥٦٠ وحتى عام ١٥٦٦ م (لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ١٨ – ٢٧) .

(١٠١) يذكر الاستاذ محمد عبد الله عنان ، أن موريسكى .... بلنسية أنفسهم لم يتميزوا عن غيرهم من الموريسكيين الا بتخفيف العقوبة فى حالة عدم تنفيذهم لهذا القانون (عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٦١) .

Historia de la rebelión y castigo de los moriscos en el reino de Granada.

كما اعتمد الدكتور **محمد عبده حتاملة** على أهم المصادر الاسبانية المعاصرة كما اعتمد على كتــاب **لمـؤلف موريسكى مجهول بالاسبــانية** ، حـــول الثــورة الموريسكية وتهجير الموريسكيين وآثار ذلك التهجير فى جميع أنحاء شبه الجزيرة الايبيرية Historia del Alzamiento de los Moriscos. Su expulsión de España y sus consecuencias en todas las provisiones del Reino. فزودنا بمادة علمية وفيرة عن رد فعل الموريسكيين فى عام ١٥٦٧م أمـــام هذا القانون الجائر . أما الدكتور **عبد الله جمال الدين** فقد اعتمد عند تأريخه لهذه الحقبة على بيريث دى هيتا وروايته الحروب الأهلية فى غرناطة .

ويذكر الدكتور **محمد عبده حتاملة** أنه قبيل نهاية شهر ديسمبر من عام ١٥٦٧م (٩٧٥هـ) وهو المــوعد المحـــدد لكى تتخـــلى فيـــه الموريسكيـــات عن البستهن الحريرية (١٠٢) وأزيائهن الاسلامية وبالزام الأطفـــال الموريسكيين بتعلم اللغة الاسبانية والدين المسيحى بدلا من اللغة العربية والاسلام ، وبمنع المسلمين من استخدام الحمامات ، هرعت وفود موريسكية الى الرئيس ديسا (١٠٣) ، يتقدمهم اسبانى كان يتمتع بنوع من التقدير فى الأوســـاط الموريسكية هو السيد خــوان انريكيث ، وبصحبته اثنان من كبار الموريسكيين هما خوان فرناندث من أعيان غرناطة ، وفرناندو الحبقى من أعيان وادى آش ، محاولين تعطيل تطبيق القانون الجديد ، ولكن كل جهودهم باءت بالفشل أمـــام مقابلة ديسا المهينة لهم ، بل أن ديسا كتب تقريراً مفصلا يوحى فيه بتطبيق القانون الجديد بكل عنف وقسوة . فلما استبد اليـــأس بالموريسكيين ظهر من بينهم شـــاب كان يعمل صباغا يدعى **فرج بن فرج من أسرة بنى سراج** ، أشرف بيوتات غرنـــاطة ، ساءه أن يعـــامل الموريسكيون بمثـــل هذه القسوة ، وعـــز عليه أن يرغم قومــــه على التخـــلى عن تقاليدهم الموروثة بكل وسائل القهر فاتصل بمن استطـــاع من الموريسكيين فى

---

(١٠٢) يعتبر تغيير الملابس واللغة أولى خطوات تغيير الهوية المميزة لأى شعب من الشعوب وعن أثر ذلك فى هوية المسلمين فى الاندلس ارجع الى

Rachel Arié, «Acerca del traje musulmán en España desde la caída de Granada hasta la expulsión de los moriscos».

مقال فى مجلة المعهد المصرى بمدريد ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، ص ١١٥ . وقد أشارت الى ارتداء الثوار المسلمين وعلى رأسهم محمد بن أمية ملابس اسلامية كرمز لنبذ طاعة الاسبان .

(١٠٣) هو المحقق دون بيدرو ديسا Pedro Deza أحد أعضاء المجلس الذى شكله الملك فيليب الثانى لدراسة أوضاع الموريسكيين (حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ٣١) .

غرناطة عام ١٥٦٨م (٩٧٦هـ) (١٠٤) . وكان فرج بن فرج بحكم تردده فى معظم الأحيان على أنحاء البشرات وثيق الصلة بأهلها فاتفق معهم على أن تقوم قوة كبيرة منهم بالزحف الى غرناطة لمفاجأة الحامية الاسبانية وسحقها .

ولما كانت الحرب خدعة فقد رأى ابن فرج أن يرسل ثلاثة من أكثر الموريسكيين أمانة وثقة ليبلغوا اخوانهم خارج غرناطة بنيتهم ، كما تقدموا بطلب الى الحكومة الاسبانية يذكرون فيه أن غايتهم جمع الأموال لبناء مستشفى خارج غرناطة للمرضى الفقراء واللقطاء المسيحيين تمويها على الاسبان ، وبهذه الحجة تمكن الموريسكيون الثلاثة من الحصول على ترخيص الحكومة الاسبانية ، فخرجوا والتقوا باخوانهم وأبلغوهم أن يتخذوا مراكز لهم على السواحل التى يمكن أن تنزل اليها التعزيزات الاسلامية ، لا سيما من المغاربة والاتراك المسلمين ، ثم عادوا لغرناطة لتنظيم صفوفهم والاعداد لتنفيذ مخططهم واتفقوا فيما بينهم على تحديد يوم الخميس المقدس الموافق ليوم ١٤ أبريل ١٥٦٨م وهو أحد أعياد المسيحيين الذى يتواجدون فيه فى الكنيسة موعد لاشعال نار الثورة . ولكن الخيانة لعبت دورا كبيرا عندما أقدم بعض عملاء الحكومة الاسبانية ببيع مصالح دينهم ووطنهم فأبلغوا السلطات بتفاصيل الخطة ، وانتهى الأمر بالقبض على عدد من وجهاء الموريسكيين مما ترتب عليه التوقف عن تنفيذها وتأجيل ذلك الى فرصة أخرى مواتية ، وتوجه فريق منهم الى المحقق دون بيدرو ديسا يعلنون ولاءهم فى الظاهر ، وهم فى داخلهم ينتظرون اليوم الذى ينتقمون فيه لأنفسهم وكرامتهم وعرضهم .

واتفق بعض رؤسائهم على الاجتماع فى بيت بائع شمع مسلم يدعى عدل Adelet وقرروا أن تبدأ الثورة فى اليوم الأول من شهر يناير عام ١٥٦٩ م (٩٧٧هـ) وابلغوا الموريسكيين فى بقية أنحاء غرناطة بالاستعداد لحمل السلاح ، فتجند ما يقرب من ثمانية آلاف شخص ، وتم الاتفاق على أن تقوم الثورة فى ثلاثة مواقع فى البيازين فى وقت واحد ، حمل الموريسكيون فيها أعلاما يفترض أن يقوم كل حامل علم بمهمة محددة . فحاملو العلم الأصفر يحتلون ساحة باب البنود ، وحاملوا العلم الأحمر يحتلون باب فجالونا ، وبعده يتجهون من باب سرى فى اتجاه المستشفى الملكى ثم يسيطرون على محكمة التفتيش ليخلصوا

---

(١٠٤) عن المؤلف الموريسكى المجهول ارجع الى (حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ٣٣) وقد أشار الدكتور عبد الله جمال الدين الى ثورة فرج بن فرج اشارة سريعة دون الدخول فى تفاصيل (عبد الله جمال الدين ، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٨٥ ، ٨٨) وعن ثورة فرج بن فرج بن سراج ارجع كذلك الى
Julio Caro Baroja, «Los moriscos del reino de Granada», p. 174.

المسلمين المعتقلين هناك ، أما حاملو العلم الأزرق فكانت مهمتهم تقتضى البحث عن الرئيس ديسا لقتله على أن تلتقى الفرق الثـلاثة فى ساحة باب الرملة حيث يمكنهم بمساعدة المطوعة الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف الدفاع عن المدينة(١٠٥).

وفى هذه الأثناء خرج جماعة من حراس محكمة غرناطة الى قرية بقيرة ومعهم خمسون جنديا اسبانيا ، لقضاء عيد الميـلاد ، فهاجمتهم جماعات الموريسكيين الثوار . وفى اليـوم المحدد بعث على باشـا والى الجـزائر التركى امدادات الى الموريسكيين نزلت على سواحل المرية ومربلة ثم توجهت الى الأماكن المحددة لها . ولكن هذه الثورة لم يتح لها أن تنفذ كمـا خطط لهـا اذ هطلت ثلوج غزيرة على جبـل شلير Sierra Nevada فانسدت الطـرق الى غرناطـة ولم يتمكن ثوار البشرات والمتطوعين من الوصول فى الموعد المحدد .

ويرجع سبب ذلك الى أن فرج بن فرج بن سراج لم يحسب حسابا للبرد والثلج بل أنه توجه على رأس مائتى مقـاتل من الموريسكيين من بينوس Pinos وثنيس Cenes الى أسوار غرناطة وأخبر أهالى البشرات أن أهل البيازين سينضمون الى الثورة ، واعلم أهل البيازين أن ثمانية آلاف مسلم من لكرين Lecrin سينضمون اليهم ، وتقدم فرج بن فـرج بمن معه الى أسـوار غرناطة وهم يكبرون ويهتفون بعبارة « لا الـه الا الله ، الله أكبر ، الله أكبر » ولكن أهل البيـازين لمـا رأوا قلة المهاجمين أغلقوا عليهم أبوابهم مما أغضب الثوار ، كما أن الأهالى والمتطوعين القـادمين من المغرب لـم يلحقوا بهم فبـاءت خطتهم بـالفشل ، واضطروا الى الاعتصام بالجبال المغطاة بالثلوج حماية لأنفسهم من بطش السلطات الاسبانية بهم ، وبهذا تراجع فرج بن فرج حتى وصل الى البشرات (١٠٦) . ومع ذلك فان اليأس لم يتسرب الى قلوب الموريسكيين الذين عادوا للاجتماع من جديد لمتابعة الجهاد ، فى معركة الحياة أو الموت ، معركة المصير ، وأعلنوا استقلالهم وبدأوا يفكرون فى اختيار زعيم لهم بخلاف فرج بن سراج ، فقد كانوا يسعون الى اختيار زعيم يكون رمزاً لملكهم القديم تتوفر فيه روح الشجاعة والاقدام وينتسب فى ذات الوقت الى احدى البيوتات الحاكمة للاندلس فى العصور الماضية ، فوقع اختيارهم على شاب من أهل البيازين يدعى دون فرناندو دى فالور وفى بعض الآحيان دى كردوبا أو قرطبة ، وكان هذا الاسم الاسبانى المسيحى يخفى وراءه حقيقة هذا الزعيم الجديد ، فدى فالور كـان يرجع بجذوره الى بنى أمية ، أى كـان سليل

---

(١٠٥) عن المؤلف الموريسكى المجهول ارجع الى (حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ٣٥) .
(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

خلفاء قرطبة ، وكان اسمه الحقيقى الذى أعلنه عندما قام بالثورة هو محمد ابن أميــة (١٠٧) .

وكــان لابن أمية مهابة كبيرة فى نفوس الموريسكيين والاسبان على السواء ، فقد كان قد أختير المستشار الرابع والعشرين لبلدية غرناطة ، ولكن بالرغم من ذلك كان موضع شك وريبة من قبل السلطــات الاسبانية لا سيما فى الفترة التى سبقت الثورة حتى أنهم أودعوه فى السجن . وظل ابن أمية فى السجن حتى قــام فرج بن فرج بن سراج بثورته المعروفة فى ليلة ٢٤ ديسمبر ١٥٦٨م ، فتمكن من تخليصه مع خادمــه من سجنه ، فانطلق ابن أميــة الى أقاربه فى برذنار (وادى لكــرين) Béznar حيث أجمعوا على مبــايعته ونادوا به ملكا فى ٢٧ ديسمبر ١٥٦٨م ، وأقرته مناطق عديدة حددها الدكتور محمد عبده حتاملة فى كتابه (١٠٨) ويذكر مارمول Marmol أن محمد بن أميــة كان فى العشرين من عمره يمتاز بوسامة ونبــل طلعته ، واحتفــل الموريسكيون بتنصيبه وتتويجه فى ٢٩ ديسمبر ١٥٦٨ م احتفــالا متواضعا حيث فرشوا الأرض بالأعلام الاسلامية ذات الأهلة فصلى عليها ابن أمية متجها صوب مكة وقبل أتباعه الأرض أمامه رمزاً للخضوع والطاعة ، وأقسم الأمير ابن أمية أن يموت فى سبيل دينه وأمته (١٠٩) .

ويذكر د. حتاملة نقلا عن المؤلف الموريسكى المجهول أن اختيار الموريسكيين لمحمد ابن أمية وتنصيبهم له أميراً عليهم أصاب فرج بن فرج بن سراج بالاستياء لأنه كان يعتبر نفسه أكثر خبرة فى مجال الحرب والقتال فضلا عن أنه كان أول من دعا الموريسكيين لمحاربة الاسبان ، وأنه من أسرة بنى سراج العريقة ، ولكن ابن أميــة رأى أن يكسبه ويــأتلفه ويتخذه حليفــا فاختــاره كبــيرا للــوزاراء Alguacil Mayor وهى أعلى رتبة عرفها الموريسكيون (١١٠) .

وفى ٣١ ديسمبر ١٥٦٨ سار فرج بن فرج على رأس خمسمائة فارس موريسكى فى محاولة لايقاظ روح الثورة فى جميع أنحــاء مملكة غرناطة من سواحل بيرة

---

(١٠٧) عن مارمول ارجع الى محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٦٥ . وعن تفاصيل الثورة ارجع كذلك الى عــادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركــة ، ص ١٥٠ وما يليها . ويذكر د. عبد الله جمال الدين أن أحــد أبناء بنى أمية وهو «ابراهيم بن أمية» قاد ثورة الموريسكيين سنة ١٥٠٠ م وقد تمكنوا بفضله من السيطرة على عدة حصون ساحلية فى البشرات قبــل أن يتغلب عليهم الاسبان (عبد الله جمال الدين ، المسلمون المنصرون ، ص ٣٦ ، كما يؤكد د. عبد الله جمال الدين أن محمد بن أمية يرجع بأصله الى عبد الرحمن الداخل نفسه (المرجع السابق ، ص ٨٧) ولمــزيد من التفاصيل عن ثورة ابن أمية ارجع الى Baroja, «Los moriscos», pp. 173-185)

(١٠٨) لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ٤٠ ، ٤١

(١٠٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٦٥ – أنطونيو دومينقير هورتز ، برنارد بنتنت ، تاريخ مسلمى الاندلس ، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية ، ص ٤١

(١١٠) حتاملة ، التهجير القسرى ، ص ٤١

(Vera جنوب قرطاجنة) الى جبل طـارق وانضم اليه العديد من الموريسكيين وهم يهتفون بالعبارات الاسلامية ويكبرون فأحـرقوا الكثير من الكنـائس التى كانت يوما ما مساجد لهم ونكـلوا بالعديد من القساوسة الذين طـالما ذبحوا المسلمين وعذبوهم . وأساء ابن فرج التصرف فقد أقدم على الفتك بعدد كبير من النساء والأطفال والشيوخ مما أثـار استياء ابن أمية وغضبه فعزله عن قيادة الجيش (١١١) وعين بدلا منه عمه ابن جوهر . وأثارت هجمات ابن فرج الشرسة وانضمام الموريسكيين فى ثورتهم تحت رايـة ابن أمية الرعب فى نفوس سكـان غرناطة ونواحيها . ويذكر د. عبد الله جمال الدين أن الثورة الموريسكية قد تميزت بملمحين أساسين أولهما وهو الطابع الدينى الذى سبق أن ذكرناه من قبـل ثم طابع الرغبة فى احياء كل مظاهر الثقـافة الاسلامية ومن مظاهر احياء الطـابع الدينى ، قتـل وتعذيب المسيحيين الذين كانوا فى الأصل من المسلمين ثم تنصروا قسرا ، وتحطيم الكنائس وما فيها من صور وتماثيل مرتبطة بالعبـادة المسيحية أما عن مظاهر احياء الثقافة والهوية الاسلامية فتمثلت فى احياء رسالة المسجد واقامة الشعائر الاسلامية بكل فخر واعتزاز لا سيما فى منطقة أوجيخر والعودة الى استخدام الزى والعادات الاسلامية (١١٢) .

ولكن بعزل ابن أمية لفرج بن سراج يختفى ذكره عن مسرح الأحداث ، وتنتهى بذلك سيـرة بنى سراج فى تاريخ الأندلس بينمـا تمضى ثورة ابن أمية مـا بين الجهاد والخيانة الى أن انتهت كل جهود الموريسكيين بالفشل .

واذا كـانت ثورات الموريسكيين قـد انتهت فى القـرن السادس عشر الا أن الموريسكيين استمروا يمارسون الاسلام فى اسبانيا خلال القرن ١٧ ، بل والثامن عشر كله ، ويؤكد ذلك تاريخ محاكم التفتيش التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بسياسة تعذيب المسلمين والتمثيل بهم (١١٣) . ولم تكن حياة الموريسكيين الدينية رغم ما كانوا يتعرضون له من تعذيب تختلف فى جوهرها عن الحياة الدينية للشعوب

---

(١١١) المرجع السابق ، ص ٤٢ ، فى حين يذكر كل من الاستاذ محمد عبد الله عنـان والدكتور عبد الله جمال الدين نقلا عن مارمول أن ابن أمية كان قد اختار عمه ابن جوهر (فرناندو الصغير) قائدا للجيش منذ البداية (نهـاية الاندلس ، ص ٣٦٥ - المسلمون المنصرون ، ص ٨٨) ولكنـنا نرجح رواية د. حتاملة لأن مصدره فى ذلك مؤرخ مسلم موريسكى فى حين أن الاستاذ عنان يعتمد على رواية قشتالية لمارمول فى حين يعتمد د. عبد الله جمال الدين على كل من
Vincent Bernard, «Historia de los moriscos.
وكذلك على كتاب Baroja, «Los moriscos del reino de Granada.

(١١٢) عبد الله جمال الدين ، المسلمون المنصرون ، ص ٩٤

(١١٣) سرى محمد محمد عبد اللطيف ، الهوية الاسلامية للموريسكيين من خلال أدب الالخميادو من أعمال الملتقى العالمى الخامس للدراسات الموريسكية ، جـ ٢ ، زغوان ، ١٩٩٣ ، ص ١٥١

الاسلامية أو لغيرهم من الشعوب التى كانت أو ما زالت تدين بالاسلام (١١٤) ، فقد استمر الموريسكيون يعتزون بالهوية الاسلامية ولدينا قصيدة رومانثية عنوانها « العربية المخدوعة » حيث تقول الفتاة الموريسكية :

أنا عربية عروب
عربية من نسل ابن قطر
مسيحى جاء لبابى
جاء يبغى لى الخطر
حدثنى بلغتى الحبيبة
كأنه من أهل طيبة
افتحى الباب ياعربية . . (١١٥)

وقبل أن نختتم حديثنا عن تاريخ بنى سراج تجدر الاشارة الى أن كثيراً من المؤرخين تشككوا أصلا فى وجود بنى سراج لكثرة الأساطير التى أحيطت بهم وقلة الآثار الدالة عليهم فى نفس الوقت (١١٦) ، فاعتبروهم ضربا من الوهم والخيال غير أن النصوص التاريخية التى اعتمدنا عليها فى دراستنا تؤكد الدور الكبير الذى قاموا به بالاضافة الى الشواهد الأثرية وتتمثل فى النقوش الجنزية التى تسجل وفاة بعضهم وآثار قصر منسوب اليهم : ففى حدود عام ١٩٦٥م ، وقع زلزال بجنوب اسبانيا ، أثر على المناطق الواقعة بجوار السور الرئيسى لقصر الحمراء بين باب العجلات وبرج الرؤوس Las Cabezas ، وقد كشف هذا الزلزال عن وجود آثار عديدة لقصر بنى سراج حيث أنه حتى نهاية القرن الثامن عشر ، لم يكن ظاهراً منه الا بضعة جدران غير كاملة . وهذه الآثار رغم قلتها تؤكد فى حد ذاتها وجود هذه الأسرة كحقيقة تاريخية (١١٧) . وقد أشار مانويل جومث مورينو Manuel Gómez Moreno الى هبة قدمها الملكان الكاثوليكيان الى دون خوان شاكون Don Juan Chacón سيد قرطاجنة ، تتمثل فى دار لبنى سراج (١١٨) .

---

(١١٤) المرجع السابق ، ص ١٥٢

(١١٥) صلاح فضل ، ملحمة المغازى الموريسكية ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٢٨

(١١٦) Jesús Bermúdez Pareja, María Angustias Moreno Olmedo, «El palacio de los abencerrajes», cuadernos de la Alhambra, núm. 5, Granana, 1969, p. 55.

(١١٧) تعتبر الدراسة القيمة التى قام بها لويس سيكو دى لوثينا من أهم الدراسات التى سلطت الضوء على بنى سراج وميزت بين ما هو حقيقى وما هو وهمى (ارجع الى Luis Seco de Lucena, «Los abencerrajes, leyenda, historia», Granada, 1960. Jesús Bermúdez Pareja, María Angustias Moreno, «El palacio», p. 55.
وارجع كذلك الى بحث Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 150-170.

(١١٨) Manuel Gómez Moreno, «Guía de Granada, Granada, 1892, pp. 151-152.

ويؤكد كل من الأثريين María Olmeda وJesús Pareja على أن هذا ينهض دليلا قاطعا على أن بعض بنى سراج كانوا يعيشون فى قصور الحمــراء ، وأنهم كانوا يؤدون وظائف سامية ويمارسون أعباد ادارية هامة فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان أبى عبد الله محمد .

وربما يكون قصر بنى سراج قد انتقل الى ملكيــة أحد القضـــاة فى غرناطة فى العصور التالية لسقوط غرناطة فالأب Juan De Echeverría يشير الى نقش كان مسجلا فى القرن الثامن عشر على الباب الخارجى للبناء يؤكد أن هذا القصر الذى كان يملكه بنو سراج هو قصر القــاضى كما أنه وجد اشارة بين الوثائق تؤكد ذلك (١١٩) .

ونستنتج من وجود آثار لهذا القصر أنه كان لا يختلف فى بنيانه وفى زخارفه عن قصور بنى نصر ، وأنه كان مزوداً بصحن داخلى وواجهة حافلة بالزخارف ، ولا نستبعد أنه يتوسط فناءه بركة صناعية وأنه كان يشتمل على مرافق متعددة تضم اسطبلات ومخازن . وهنــاك وثيقة مؤرخة بتاريخ مــارس سنة ١٥٠٢ م ، تصف قصر دون خــوان شاكــون أو قصر بنى سراج ، ورد فيهــا ذكر عدد من البـــرك ، ومطبخ وبيوت صغيرة ممــا يعبــر على أن قصر بنى سراج كــان كبير المساحة وأنه كان يشتمل على ملحقات كثيرة . أما الواجهة فكانت تزدان من أعلى بنقش يمثل كفــا مبسوطــا ومفتاحا على غرار نظيره على باب الشريعة فى مدخل قصر الحمراء ، ويبدو أن الثراء الزخرفى للبوابة يجعل من هذا القصر صورة مصغرة من قصور الحمراء (١٢٠) .

أما وثــائق الحمراء فى القرن ١٦م فتسمى قصر بنى سراج « بيت الحاسب » وهذا يدل على أن هذا القصر تحول الى شخص آخر بمعنى أنه لم يعد يعيش فيه دون خوان شــاكون وانما دون رودريجو دافالوس Don Rodrigo Davalos الحاسب الخــاص لكــونت دى تنديللا Conde de Tendilla (١٢١) وفى سنة

---

(١١٩) Padre Juan de Echeverría, «Paseos por Granada, por los años de 1764» y ahora nuevamente impresos, Granada, 1814, t. I, pp. 333-335, Jesús Bermúdez, **op. cit.**, p. 56.

(١٢٠) Jesús Bermúdez, **Ibid**, pp. 56-57.

(١٢١) **Ibid**, p. 57. وكنت دى تنديللا De Tendilla هو القائد لوبث دى مندوسا الذى عينه فرناندو الكاثوليكى حاكما عسكريا لغرناطة (عن مارمول ارجع الى عنــان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٦٦) .

١٥٤٥م طالب ميجيل دى شاكون بحقه فى ملكية هذا القصر باعتباره وريثا لدون خوان شاكون (١٢٢) .

وسنورد فى البحث وثيقة تتضمن قضية أثارها دون ميجيل دى شـــاكون ضد الحاسب ، المالك الجديد للقصر وآخرين حول قصر بنى سراج .

(١٢٢) أورد دون خيسوس باريدا قائمة عبارة عن أسماء كل أفراد أسرة دون خوان شاكون ،
(**Ibid**, pp. 58-59)

ثانيــا بنو سراج فى الأسطورة والقصص الشعبى :

(١)

نكبة بنى سراج والأساطير التى دارت حولها

تعرضنا فى سياق حديثنا عن « بنى سراج فى المصــادر التاريخية عن علاقتهم بسلاطين غرناطة وأوضحنا كيف أنهم كانوا يحركون خيوط الأحداث السياسية خاصة منذ عصر السلطان الأيسر . وقد تعرضنا فى دراستنا لشرح موقف بنى سراج من السلطان أبى عبد الله (الصغير) أو الزغير الذى اغتصب العرش من السلطان الأيسر مما تسبب فى هرب هذا الأخير الى تونس فى حين آثر بنو سراج البقاء فى الأندلس للسعى فى تقويض دعائم حكم السلطان الزغير ، واعادة الأيسر الى عرشه المغتصب ، وقد شرحنا كيف هــرب الوزير يوسف بن سراج الى ملك قشتــالة واستنصر به لاعــادة الأيسر ، وكيف تكللت جهــوده فى نهايــة الأمر بالنجاح ، فاسترد الأيسر العرش السلطانى بعد أن تخلص من الزغير . ولا نشك فى أن الزغير ، كان طوال فترة حكمــه يستشعر الخطر من قبل بنى سراج فكان يطاردهم . وتمكن من النيل من بعض أفرادهم ففر بقية أفراد الأسرة الى اشبيلية التماسا للنجاة من مكايد الزغير . ويذكر الأمير **شكيب أرسلان** بأن هذه الأحداث السيــاسية التى عاشتهــا أسرة بنى سراج زمن الأيسر وأبى عبد الله الزغير ، كانت مجالا خصبا لبعض الأغانى الشعبية ، فقد أشارت بعض الأغانى المتعلقة بفتح قلعة الحامة (١٢٣) الى واقعة مقتل أفراد من بنى سراج زمن الزغير (١٢٤) فى حين تــذكر **راشيل آريــيه** أن قصيدة « آه من حامتى » الرومانثيــة الخــاصة بموضوع بنى سراج قد ألفت بمناسبة سقوط الحامة فى أيدى القوات القشتالية بقيادة مركيز قادش وهى القوات التى انضمت اليها أجناد اشبيلية ونجحت فى النهاية فى الاستيلاء على مدينة الحامة الصغيرة الواقعة على جانب من الجادة التى تربط غرناطة بمالقة ، واستؤنفت بعدها حركة الريكونكيستا وهى الحرب

---

(١٢٣) الحامة أو الحمة **Alhama** ، تقع على بعد أربعين كيلومترا جنوب غربى غرناطة وسميت بهذا الاسم لتفجر العيون الحارة بها وقد أورد صاحب نبذة العصر أخبارا عن سقوطها فى أيدى النصارى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٢٢ م) (نبــذة العصر ، ص ١٠ ، ٥١) ولمزيد من التفاصيل عن سقوطها وجهود السلطان أبى الحسن على للدفاع عنها (ارجع الى محمد عبد الله عنــان ، نهاية الاندلس ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢) .

(١٢٤) شكيب أرسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٤ .

التى انتهت بسقوط غرناطة خــلال عشرة سنوات . وتبدأ القصيدة الرومانسية باعلان نكبة الحــامة التى استشعرها أهل غرناطــة بعمق ، وذلك بذكر الدور الأول منها فى المقطع الذى تندب فيه سقوط الحامة « آه من حامتى » والتى تتردد ٤ مرات ، وهو مقطع يلوم فيه عالم غرناطى ملتحى بلحية شيباء سلطان غرناطة بعنف لأخطائه ، وينسب اليه تبعة سقوط الحامة بسبب اصداره الأمر بقتل أفراد من أسرة بنى سراج الذين كانوا الزهرة اليانعة فى طبقة المحاربين النبلاء بمملكة غرناطــة (١٢٥) . **ويذكر لويس سيكو دى لوثينا** أن هــذه القصيــدة من حيث تكوينها الموزون ومن حيث الموضوع الــذى تدور حوله لا يمكن أن تكــون سوى من أداء مسلم أندلسى ، وربما صيغت فى نهــاية القرن الخامس عشر أو الثلث الأول من القرن السادس عشر ، وأن السلطان الذى تدور حوله هو السلطان أبو الحسن على ، ونحن نتفق مع دى لوثينا وآرييه فى هذا الرأى لأنه يتفق مع المنطق والتاريخ فالحامة قد سقطت فى زمن أبى الحسن على ولا يعقــل أن تؤلف قصيدة « آه من حامتى » التى ورد فيها ذكر بنى سراج تخليدا لذكراهم بعد مقتلهم زمن الزغير ، كمــا يذكر الأمير شكيب أرســلان ، وانما الأقرب الى المنطق أن تكون القصيدة المعاصرة لأبى الحسن على تشير الى نكبة بنى سراج فى عصره ، خاصة وأن الأحداث التــاريخية تؤكد ذلك ، وكنــا قد ذكرنا فى الصفحات السابقة ما يؤكد ذلك وأوضحنــا كيف أن بنى ســراج ساعدوا الأميــرة عائشة الحرة على الفرار مع ولديها من اضطهاد زوجهــا السلطان أبى الحسن على لهم ، بتحريض من زوجته الجديدة « ثريــا » أو ايزابيل دى سوليس ، وقد أوضحت آنذاك أن السلطــان أبا الحسن على لم يغفر لبنى سراج أبداً مســاعدتهم لعائشة الحرة ، وتــأييدهم لولده الأكبــر أبى عبد الله محمد فى معركتــه ضده ، فانتقم منهم شر انتقام . ويؤكد رأينا هذا العبارات التى وردت فى القصيدة ، فنحن نطالع هذه العبارة عدة مرات « قتلت بنى سراج الذين كــانوا زهــرة غرنــاطة »

Mataste los Bencerrajes que eran la flor de Granada

كما توجد اشارات على وفاء بنى سراج للسلطانة عائشة ولوالدها الراحل لذلك فقد نكبهم السلطان أبو الحسن وقتــل عددا كبيرا منهم ، أما من نجا منهم فقــد لجــأوا الى قشتالة ونزلوا باسرة دوق مدينة شدونة Medina Sidonia أو الى احدى الأسر الأخرى النبيلة بها ، كما لاذ آخرون ببعض المدن القشتالية المجاورة للحــدود (١٢٦) .

---

(١٢٥) Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 154-156.

(١٢٦) **op. cit.**, p. 158.

كانت هذه الأحـداث موضوعا للروايات والأسـاطير الشعبيـة التى حرفت الحقيقة التـاريخية فخلطت بين السبب الحقيقى الذى دفع أبـا الحسن على الى الانتقام من بنى سراج وهو سبب سياسى كمـا ذكرنا فجعلت وراء هذه النكبة التى حلت بهذه الأسرة العريقة قصة عاطفية رقيقة ، تقول الأسطورة أو الرواية التى وردت فى الأغانى الاسبانية والتى أشار اليها الوزير **محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب الى ملك اسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر فى رحلته نقلا عن التواريخ الاسبانية** (١٢٧) أن عميد هذه الأسرة ، محمد بن سراج الذى كان من أبرز الفرسان وأشهرهم فى غرناطة فى زمنه ، هام بحب أميرة من الأسرة المالكة اسمها « الفاهمة » مما أثـار عليه غضب السلطان فى ذلك الوقت ، فقرر سحق الأسرة كلها ، فدبر مؤامرة لقتلهم . وكانت خطته تقضى بان يدعو أكابرهم لحضور حفل فى القاعة المواجهة لبهو السباع بقصر الحمراء ، وكلما يدخل واحد من أفراد أسرة بنى سراج بادره حراس السلطان بالقتل ذبحا على حافة الحوض الرخامى الذى يتوسط هذه القاعة حتى قتل جلة فرسان هذه الأسرة التى فقدت من جراء هذه المؤامرة خيرة أنجادها . وسميت هذه القاعة منذ ذلك الحين باسم « قاعة بنى سراج » وتقول الأسطورة أنه لا تزال توجد آثـار بقع دامية داكنة فى قـاع الحوض الذى سالت فيه دمـاء بنى سراج وأنها لـم تمح قط ، وتضيف الأسطورة على ذلك بانه لا تزال تسمع فى تلك القاعة فى بعض الليالى أنات وقرقعة سـلاح ، وان كثيرا من حراس قصر الحمراء لمحوا جنودا مسلمين فى ألبستهم العربية يقطعون بهو السباع جيئة وذهابا (١٢٨) .

ويرفض **الأمير شكيب أرسـلان** هذه الروايـات الاسطورية ويربط بين هذه الاسطورة وبين قصة العباسة مع جعفر البرمكى وما أدت اليه من نكبة هارون الرشيد للبرامكة (١٢٩) .

أما **واشنطن ايرفينج** فقد ذكر فيما يتعلق بهذه الأسطورة أن السلطـان أبى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة ، كان السلطان المقصود فى أسطورة مصرع بنى سراج ، وقد ناقش هذه الرواية الشعبية وذكر أنها مجرد حكاية خرافية وأنه اذا كان علينا أن نتقبل بعض جوانب من هذه الروايات ، فان الأقرب الى الحقيقة التاريخية أن يكون السلطان أبو الحسن على هو المشار اليه وليس ولده أبو عبد الله لأن بنى سراج كانوا يناصرون الابن على أبيه كما أشـار الى دور بنى بنيغش فى نكبة بنى سراج (١٣٠) .

---

(١٢٧) رحلة الوزير فى افتكـاك الأسير ، للوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى ، العرائش ، ١٩٤٠ ، ص ٣٤ وما يليها .

(١٢٨ محمد عبد الله عنـان ، نهـاية الاندلس ، ص ٣٠٢ –
Rachel Arié, «Le Royaume», p. 155

(١٢٩) شكيب أرسلان ، آخر بنى سراج ، ص ٦٤ .

(١٣٠) واشنطن ايرفينج ، قصر الحمراء ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢)

رواية « ابن سراج »

كتبت رواية « ابن سراج » بعد سقوط غرنـاطة بحوالى سبعين عاما أى بعد أن كانت قضية الصراع الدينى قد حسمت لصالح المسيحيين (١٣١) وهى ترجمة أرغونية مجهولة لمـؤلف لأقصوصة عنوانها « جزء من تاريخ ولى العهد الشهير دون فرناندو (١٥٥٠ ــ ١٥٦٠م) » ومهداه الى بارون باربولس خيرونيمو أمبون Barboles Jerónimo Jiménez Embún وهو اقطاعى عرف بدفاعه المتواصل عن الموريسكيين أمـام سلطة محـاكم التفتيش ، وقد ظهـرت هذه الرواية قبل انتفاضة البشرات الأخيرة التى قادها فرج بن فرج ابن سراج فى البداية ثم تبعه فى ذلك محمد بن أميـة ، أى قبل تلك الفترة القـاسية التى عاشها الموريسكيون فى اسبانيا (١٣٢) .

ويذهب **لوبث استرادا** فى طبعته النقدية لهذه الرواية الى القول بانه بعد سقوط غرناطة اشتد الصراع بين المطالبين بطرد الموريسكيين من اسبانيا ، والراغبين فى بقائهم . ويبدو أن الفريق الثانى الداعى الى بقـائهم (١٣٣) أوحى الى الأدباء باظهار الموريسكيين فى صورة مثالية . وكان من المنطقى أن يؤثر هذا الموقف على الفريق المتشدد ليخفف من تعصبه ولكنـه تسبب فى مزيد من التشدد وفى تشويه صورة الموريسكى الذى اعتبروه عدوا لدودا (١٣٤) .

---

(١٣١) جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرنـاطة الاسلامية فى الأدب الاسبانى ، من أعمال المؤتمر العـالمى الخامس للـدراسات الموريسكية الاندلسية ، زغـوان ، ١٩٩٣ ، ج ٢ ، ص ١٩٥ وما يليهـا .

(١٣٢) لوثى لوباث بارالت ، أثر الاسلام فى الأدب الاسبـانى من العصور الوسطى الى الوقت الحاضر ، تعريب د. محمد نجيب بن جميع ، تقديم ومراجعة د. عبد الجليل التميمى زغوان ، ١٩٩٠ ص ٤٩ وما يليها .

(١٣٣) لم يكن أنصار هذا المبدأ يرغبون فى ابقاء الموريسكيين حباً فيهم أو بدافع الاشفاق عليهم وانما رغبة فى تيسير الأمور فى بلادهم اذ كـان الموريسكيون هم الذين كانوا يشتغلون بـالزراعة والأعمال الحرفية (ارجع الى أنطونيو دومينقير هورتز ، برنارد بنثنت ، المرجع السابق ، ص ١٩٣) ولمزيد من التفاصيل عن آثـار طرد الموريسكيين الطرد النهـائى على اقتصاد اسبـانيا (ارجع الى المرجع السابق ، ص ٢٥٦ وما يليها) . وعن المهن التى كان يعمل بها الموريسكيون وعن ابعادهم عن شغل الوظائف الحكومية ارجع (الى عـادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركـة ، ص ١٤٤ وما يليها) .

(١٣٤) Anónimo: «El abencerraje», edición de López Estrada, Madrid, 1982, páginas 84-85.

وأبرز عملين أدبيين فى المرحلة المعــاصرة لسقوط غرنــاطة هما رواية « ابن سراج » التى تمثل التيار المعتدل تجاه الاسلام ، والثانية رواية بيريث دى هيثا « الحروب الأهلية فى غرناطة Guerras civiles de Granada » وهذه الرواية الأخيرة تجمع بين الاعتدال والتعصب ضد الاســلام ، وسنتناولها بالتحليل فى الصفحات التالية .

أما رواية « ابن سراج » التى تحمل بين طيــاتها تعاطفا مع بطلهــا الشريف المسلم ابن درايث Abindarraéz وهو آخــر ذرارى هذه الأسرة البــاقيــن فى اسبانيا ، فتروى أن هذا الشريف من بنى سراج ، بينما كــان يمضى فى طريقه للقــاء محبوبته شريفــة الجميلة (١٣٥) ، اعترض طــريقه فرســان مسيحيون مسلحون فاشتبك معهم ابن سراج ، وقتل ثلاثة منهم بينما فر الرابع طالبا النجدة من القائد ، الذى لم يتردد فى نصرته ، وتقدم لمطاردة ابن سراج ومبارزته وينجح فى التغلب عليه اذ كان قد أصيب بجراح أثناء المعركة ، فتوجه ابن سراج للقائد المسيحى قائلا له أنه لم ينتصر عليه لتفوقه فى القتــال والفروسية وانما لأن الله أراد أن يحول بينه وبين محبوبته ، ثم أخذ ابن سراج يقص على القائد المسيحى قصة حبه لشريفة ، وانه كان فى الطريق اليها وتذكر الرواية أن القائد الاسبانى تعاطف مع ابن سراج فاطلق سراحه لمدة ثلاثة أيام يعود بعدها اليه ، وينصرف ابن سراج ليلتقى بمحبوبته ويتزوجها ويعود بعد ثلاثة أيام ومعه زوجته الى ذل الأسر ، ويدهش القائد من وفاء الشريف المسلم بوعده ، فيطلق سراحه بلا فدية ، ويتوجه الزوجان الى بلدهما ويرســلان الى القــائد الاسبانى هدية عبــارة عن مجموعة أسلحة وجياد وعملات ذهبية ، وتشير الرواية الى أن القــائد المسيحى قبل الجياد والسلاح بينما رد اليهما العملات الذهبية شاكرا ، معلنا قيام صداقة قوية بينه وبين ابن سراج المسلم دامت مدى الحياة ، كما أرسل القائد المسيحى رسالة الى سلطــان غرناطة يعبر فيها عن حسن ظنــه بابن سراج . ومن الجدير بالذكر أن المؤلف المجهول لرواية ابن درايث من بنى سراج يتحدث بلسان بطله مادحا أسرة بنى سراج المشهورة فيقول (أنــا من بنى سراج الغرناطيين الذين سمعت كثيرا عنهم . لقد كان بغرنــاطة أسرة من الفرسان يسمونهم بنو سراج كانوا زهرة هذه المملكة لأنهم بلطف أشخاصهم ومظهرهم وقوتهم كانوا يعلمون الآخرين هذه المزايا ولم يكن بينهم أبدا أى خائن أو جبان » .

وابن داريث «بن سراج» بذلك يرسم صورة بنى سراج باعتبارهم فرسانا ببلاط غرنــاطة ، ثم يروى بعــد ذلك أن سلطــان غرناطة كــان يظن بسبب الدسائس

---

(١٣٥) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 157.

والوشايات أن بنى سراج كانوا يرغبون فى القضاء عليه وتقسيم ملكه وعندئذ أمر بقتل اثنين منهم ثم اتبعهم بعشرة فى ليلة واحدة .

كذلك نلاحظ أن تمجيد بنى سراج فى هذه الرواية يتمثل فى عبارة « بنو سراج الذين كانوا زهرة غرناطة » وهى نفس العبارة التى وردت فى القصيدة الرومانثية « آه ياحامتى » (١٣٦) .

والرواية كما نرى فيها اشادة بكرم المسيحى وسمو أخلاقه ، وفيها أيضا مدح لوفاء المسلم لعهده ورده الجميل لمن أحسن اليه (١٣٧) .

وتطرح الدكتورة **لوثى لوباث بارالت** سؤالا يعبر عن مدى تعجبها من وجود أدب مناصر للعرب فى اسبانيا فى هذه المرحلة التاريخية العصيبة بالنسبة للموريسكيين والتى أسمتها بعصر « محاكم التفتيش » وتذكر أن الموقف المعتدل للمسلمين من خلال رواية « ابن سراج » والتعاطف المسيحى نحوه لحبه الصادق لشريفة المسلمة يعد لغزا من الألغاز المطروحة فى الأدب الاسبانى ، اذ أنه من التناقض أن يمجد الأدب الاسبانى صورة المسلم ويبرزه فى أحسن مظهر وأعمق جوهر فى الوقت الذى كان فيه الموريسكى يمنع المسلم من هويته الثقافية وينكل ويمثل به ويحرق حيا (١٣٨).

وقد ساهم عدد من المتخصصين فى الرد على هذا التساؤل ومن أبرز هذه الآراء رأى الناقد الاسبانى مرثيلينو منندث اى بلايو Marcelino M. Pelayo

---

(١٣٦) Rachel Arié, **op. cit.**, p. 157.

وقد أوردت المؤرخة الكبيرة راشيل آرييه كل الروايات والقصائد الشعبية التى تعرضت لبنى سراج ، وذكرت كل ما جاء فيها من أخبار مختلطة مع بعضها البعض ، دون تدخل منها أو تعليق أو تفنيد لها فجاءت المعلومات كلها مختلطة ومضطربة ونلاحظ أن مؤلف رواية «ابن سراج» قد تأثر الى حد كبير بما عرف فى العصور العربية القديمة عن المنذر بن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء (٥١٨ – ٥٥٤ م) فقد عرف عنه أنه كان قد حدد أياماً عرفت باسم «أيام البؤس» يقتل فيها من يقابله المنذر ليطلى بدماء القتيل برجين كان يملكهما ابن ماء السماء . وتذكر الروايات التى وردت فى المصادر العربية أن ابن ماء السماء قد التقى فى أحد أيام البؤس الشاعر حنظلة بن عفراء فامر بقتله ، ولكن حنظلة استسمحه أن يمهله عاما يرجع فيه الى أهله ليؤدى مهمة ثم يرجع اليه لتنفيذ حكم القتل فيه . ووافق المنذر بن ماء السماء على هذه المهلة ، ولما انتهى الأجل المحدد ، عاد حنظلة ، محافظا على وعده الى المنذر ليطبق فيه حد القتل ، فعجب المنذر من وفاء حنظلة بعهده وسأله عن دينه ، فأجابه حنظلة بأنه النصرانية فكان ذلك سببا من أسباب تنصر المنذر وكل أهل الحيرة .

ونحن نميل الى الاعتقاد بتأثر رواية ابن سراج بقصة حنظلة مع المنذر بن ماء السماء (لمزيد من التفاصيل عن قصة حنظلة بن عفراء ارجع الى ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مادة غريان ، ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، ص ٢١٩ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٤ – ١٦٥) .

(١٣٧) جمال عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

(١٣٨) لوثى لوباث بارالت ، أثر الاسلام ، ص ٤٩ .

الذى فسر هذا التنـاقض بانه صورة من الصور الـتى تبرز الصراع التقليدى بين الأدب والتـاريخ (١٣٩) ، فى حين اكتفى النـاقد الفرنسى جـورج سيرو Georges Cirot بابداء الدهشة تجـاه الهوة التى تفصل بين الأدب المنـاصر للعرب والتاريخ المعـاصر له (١٤٠) . أما كـلاوديو جيين Claudio Guillén فقد كان أكثر دقة فيما سجله من آراء فى مقاله الشهير « الأدب كتناقض تاريخى – ابن سراج رواية موريسكية » فقد اعتبر هذا الآدب أقرب الى الـواقع منه الى الخيال اذ هو وصف ضمنى لمدى البؤس الذى كان شائعا فى ذلك العصر ، ويعتقد أن رواية « ابن سراج » هذه مـا هى الا تعبير عن الـرغبة فى التعايش السلمى والابتعاد عن الحروب الدينية والنزاعات العرقية (١٤١) ، وتوافقه فى هذا الرأى الباحثة ماريا سوليداد كراسكو (١٤٢) .

وقبل أن نختتم الحديث عن هذه الرواية أود أن **أذكر بدورى** رأيا فيما يتعلق بهذه القصة « قصة ابن سراج » التى كتبت عقب سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاما عندما كـان الموريسكيون وهم فى صميم محنتهم يتعرضون لأقسى أنـواع التعذيب والبطش والتنكيل ، وفى تصورى أن الصورة الطيبة للمسلم التى عبر عنها كاتب هذه الرواية ربما كانت نوعا من الاسقاط النفسى ، وكـأن الاسبانى المسيحى يريد أن يرى نفسه بعيدا عن كـراهيته وتعصبه ، يريد أن يشعر ذاته بانه أولا وأخيرا انسان ، يسعى الى دفع الظلم واقامة العدل حتى ولو كان هذا السلوك الانسانى العادل على الورق فحسب وفى الروايات والقصص بمعنى أن هذا الموقف المعتـدل تجاه الاسلام ربما كان رد فعـل لضمير الانسان الاسبانى ازاء المسلم المضطهد أو مجرد صحوة للضمير المسيحى الدينى فى نفسه فالمسيحية دين السلام ، تكـره العنف وترفض سفك الدمـاء . وقد يكون نوعا من التعمية لايهام الاجيال المقبلة بالحرص على التسامح وتطبيق العدالة وهو فى الواقع قناع زائف يخفى الوجه القبيح للحكم الاسبانى فى ذلك العصر ، ورغبة من الكاتب فى تجميل صورة الواقع المسخ أمام التاريخ ، وفى نفس الوقت لا أتفق مع كلاوديو جيين وماريا كراسكو فى أن الغرض من التعـاطف مع المسلم فى هذه الرواية تم بدافع الرغبة فى التعايش السلمى ، واستشهد بما ذكره كل من المؤرخ الاسبانى

---

(١٣٩) Marcelino M. Pelayo, «Orígenes de la novela», t. I, CSIC, Santander, 1943, pp. CCC-LXXXVI.

(١٤٠) لوثى لوباث بارالت ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(١٤١) نفسه ، ص ٥٠ .

(١٤٢) نفسه ، ص ٥١ –

María Soledad Carrasco, «The moorish novel "abencerraje"», and Pérez de Hita, Twayne publishers, Boston, 1976.

(١٤٣) أنطونيو دومينقير هورتز ، برنارد بنثنت ، الموريسكيون ، ص ٢٠ ، ٢١ .

أنطونيو دومينقير هورتيث والفرنسى برنارد بنثنت فى كتابهما « الموريسكيون حياة ومأساة أقلية» تحت عنوان نهاية زمن التعايش السلمى «كان المسلم والنصرانى يتعايشان منذ زمن طويل فى اسبانيا ، وكان كل واحد منهما سيداً على أرضه ويتعامل مع الآخر المثل بالمثل . ولكن منذ الثانى من يناير عام ١٤٩٢م وهو تاريخ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة ، أصبح المسلم فى أى مكان من اسبانيا مهزوما ، وان كان الظاهر من الناحية القانونية ما زال يتمتع بنفس حقوق المواطنة ، لكنه فى الحياة الواقعية العامة بدأ ضغط وقهر المنتصرين يشتد يوما بعد يوم حتى وصل الى التفكير بانهاء وجود الأقلية . أما النصوص القانونية التى عكست بتسامحها ميراث المعايشة السلمية والاحترام المتبادل فقد انتهكت يوما بعد يوم ... »(١٤٣) .

لقد عبر هذان **المؤرخان** برأيهما فى قصة « ابن سراج والحسناء شريفة » ونظرة التعاطف التى وردت فى ثناياه تجاه المسلمين بقولهما « ان التفاهم والتعاطف نحو العالم الموريسكى كان ميراث لأقلية مثقفة جدا ومحدودة العدد ... يجب أن نتوقف عن استخراج نتائج مبالغ فيها من هذه الظاهرة الأدبية ، فبين المسلمين المقدمين بصورة مثالية فى العصور الوسطى وبين الموريسكيين المطاردين فى القرن السادس عشر يوجد تلك الهوة التى تفصل بين المثالية الخالصة وبين الحقيقة الصماء (الوضع الاجتماعى) السىء ، ان فراى لويس دى ليون أحد كبار الرهبان له انتاج أدبى هام كما يعتبر من أهم رجال التصوف المسيحى الذى مدح العالم المسلم ، كان يحس بعداوة ليس لها حدود نحو الموريسكيين كما أوضح ذلك أزورين ... ان محاولات الدفاع التى أظهرتها بعض المدن فى صالح الموريسكين ولتجنب طردهم كان سببها الخوف من الاضرار الاقتصادية التى سيعانون منها أكثر من كونه مدفوعا بمشاعر ... واذا استثنينا بعض الحالات الخاصة جدا فان مشاعر الكراهية والمقت كانت عامة ، وفى القرى مختلطة السكان فان الوشاية والاسهتزاء والنكات السخيفة كانت جزءاً من الحياة اليومية ... » (١٤٤) .

ولسنا بصدد التعمق فى دراسات أدبية ، وكل ما نريد استخلاصه من رواية ابن سراج تاريخيا هو **الحقائق التاريخية التالية :**

١ ــ تدلنا الرواية بالدليل القاطع على اخلاص بنى سراج لدينهم وتمسكهم بعقيدتهم بعد سقوط غرناطة بدليل ما ورد فى هذه القصة الشعبية عن الفارس

---

(١٤٤) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

المسلم « ابن سراج » مما يؤكد عظمة هذه الأسرة واحتفاظها بهويتها الاسلامية بعكس أسرة بينغش مثلا Los Venegas التى ارتدت عن الاسـلام بعد سقوط غرناطة وتأتى الأحداث التاريخية التالية مؤيدة لما ورد فى هذه الرواية الشعبية ففى عام ١٥٦٧/١٥٦٨م هب الموريسكيون فى غرناطة والبشرات فى ثورة عارمة تزعمها أحد أبناء هذه الأسرة الشريفة وهو فرج بن فرج بن سراج كما سبق أن ذكرنا ، غيرة على دينه ووطنه وهويته .

٢ ـ تؤكد الرواية على حقيقة تاريخية أخرى وهى بقاء جزء كبير من أسرة بنى سراج فى الاندلس بعد سقوط غرناطة بدليل اقامة ابن سراج بطل هذه الرواية بالقرب من غرناطة وزواجه من شريفة الفتاة المسلمة وعودته معهـا الى بلدهما بعد أن عفا عنهما القـائد المسيحى ، وهذه الـرواية تنفى بذلك فكرة رحيل بنى سراج بأجمعهم الى تونس أو المغرب وهذا يتناقض مع ما ذكرته راشيل آرييه (*) ويؤكد رأيى هذا قيام فرج بن فرج من بنى سراج بثورته فى القرن ١٦م .

٣ ـ يؤكد اختيار كاتب هذه الـرواية لأحد أفراد بنى سراج بطـلا لروايته ورمزاً للوفاء بالعهد والحفاظ على شرف الكلمة ورد الاحسان لصاحبه ، دون أى شاب آخر من الأسرات الموريسكية التى تبقت فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة على علو مكـانة بنى سراج ورفعة شـأنهم واحترامهم بين الناس مسلمين كانوا أم مسيحيين .

(٣)

كتاب « الحروب الأهلية فى غرناطة »

Guerras Civiles de Granada

ومؤلف هذا الكتـاب هو خينيث بيريث دى هيتـا Gines Perez de Hita صدر كتابه فى القرن السادس عشر الميلادى . وبيريث دى هيتا اسبانى . وتذكر Paula Blanchard-Demouge (١٤٥) أنها لا تعرف على وجه التحديد مكان

(*) تذكر راشيل آرييه أن بنى سراج قد باعوا للسلطان أبى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة أملاكه التى كان يملكها فى غرناطة ثم لحقوا به فقد كرهوا أن يعيشوا فى اسبانيا فهاجروا جميعا الى المغرب سنة ١٤٩٣ م (Rachel Arié, «Le Royaume», p. 159)

(١٤٥) هى التى قامت بنشر الرواية وقدمت لهـا سنة ١٩١٣ ، وقـد طبعت هذه الرواية عـدة طبعات وقد رجعنـا فى هذا البحث الى طبعتين احداهما طبعـة سنة ١٩١٣ والأخرى حديثـة وهى طبعة مدريد ١٩٧٥ .

مولده الحقيقى ولكنهـا ترجح أنـه ولد فى مرسيـة لوجود وثـائق تعميد باسم شخص يدعى Ginez Perez فى نفس الفترة الزمنية التى عاش فيها مؤلفنا فى كنيسة سان ميجيل دى مولا ، ولم تحدد الـوثيقة يوم مولده أو أسمـاء الآباء الذين قاموا بتعميده ولا اسم والديه . وبعد سلسلة من التساؤلات ، ترجح باولا بلانشار أن خينيث بيريس دى هيتا ولد فى مرسية سنة ١٥٤٤م (١٤٦) .

وكانت تربط دى هيتا صلات شخصية ببعض ذرارى أسرات موريسكية كانت تقيم فى ذلك الحين فى منازل أجدادهم ، رووا له التاريخ الاسلامى وعرفوه على تقاليدهم مع الاهتمام بذكر النتائج السيئة لهزيمة بنى نصر (١٤٧) . ويزعم دى هيتـا أنه عثر على كتـاب لمؤلف عربى يدعى ابن أمين ، فيه مزيج من الـوقائع التاريخية المحرفة وكثير من القصص الخرافية ، وأنه قـام بترجمته الى اللغـة الاسبانية (١٤٨) . وتعلق باولا بلانشار Paula Blanchard فى معرض حديثها عن أهم المصـادر التى استقى منهـا دى هيتا De Hita مادة كتـابه بأنه لم يرجع الى المـؤرخ المسلم ابن أمين وحده وانما رجع الى شخص آخـر اسمه ابن أحطين Aben Ahatin ، وهى ترجح أنه هو نفسه ابن الخطيب (١٤٩) .

ويعلق البعض على هذا الزعم بأن دى هيتا يهدف بذلك اضفاء الواقعية على كتابته ، وان هذا الادعاء ليس سوى حيلة طالما استخدمها الكتاب الاسبان حتى يكتبوا ما يريدونه عن الاسـلام والمسلمين دون حـرج بحجـة أن المصدر الذى استقى منه مادته مسلما (١٥٠) .

وكتاب بيريث دى هيتا أو روايته عن حروب غرناطة يتضمن موضوعات شتى عن تاسيس مدينة غرنـاطة وعن ملوكهـا المسلمين كما يفصل فى ذكـر حوادث غرناطة الأخيـرة ومعاركها الأهلية وبـلاطها ، وما كـان يقع فيه من دسـائس ومؤامرات . وفى نطـاق ذلك يرد ذكـر بنى سراج كثيرا خاصة عند حديثه عن

---

(١٤٦) Ginés Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», p.I, pub. Paula Blanchard-Demauge, Madrid, 1913, pp. 8-30.

(١٤٧) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 159.

(١٤٨) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٠٣ – جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرناطة ، ص ١٩٧ .

Ginés Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», Madrid, 1913, p. 30. Rachel Arié, ««Le Royaume», p. 159.

(١٤٩) De Hita, **op. cit.**, pp. 30-31.

ولكننا لا نميل الى الأخذ بهذا الرأى لأن ابن الخطيب لم يكن معاصرا للفترة الاخيرة من مملكة غرناطة زمن السلطان الأخير أبى عبد الله محمد اللهم الا اذا كان قد اعتمد عليه كمصدر فيما يتعلق بالفترة الاولى من تاريخ مملكة غرناطة التى عاصرها ابن الخطيب .

(١٥٠) جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرناطة ، ص ١٩٧ .

الاحتفالات التى كانت تقام بغرناطة فى عصر بنى نصر ، فقد كان فرسان غرناطة وعلى رأسهم بنو سراج يلتمسون اعجاب السيدات فكانوا يخرجون كأبطال أسطوريين مزينين ليحظوا باعجاب النساء وتصفيقهن لهم . وكانت تلك الاحتفالات تعقد عند باب الرملة من أبواب غرناطة (١٥١) . كذلك ورد ذكرهم عند حديثه عن اضطراب الظروف السياسية فى المملكة وعن صراعاتهم مع بنى الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة .

ويذكر دى هيتا أن الثغريين Zegris هو اسم محرف من ثغرى أى المقيم على الحدود للجهاد (١٥٢) . وتعلق Rachel Arié على ما أورده دى هيتا فى هذا الصدد بقولها « يتصور بيريث دى هيتا قيام خصومة حقيقية بين بنى سراج الذى وصفهم وصفا رائعا كفرسان خيرين وبين الثغريين ، الاسم المحرف من ثغرى أى المقيم على الحدود للجهاد . ومعنى ذلك أن الأجناد الثغرية الافريقية التى كانت فى خدمة سلاطين غرناطة قد توقفوا عن أداء دور سياسى فى غرناطة فى الثلث الأخير من القرن ١٤م ، ولم تستطع على الاطلاق الدخول فى نزاع مع أسرة بنى سراج التى ظهر نفوذها منذ عام ١٤١٩ ... » (١٥٣) .

وقد اهتم دى هيتا بابراز أهم مراحل وأدوار هذا الصراع المرير ، وكان الجزء الأول من روايته قد ظهر فى سرقسطة سنة ١٥٩٥م بعنوان « تاريخ الثغريين وبنى سراج فرسان غرناطة المسلمين » Historia de los vados de Zegriés y Abencerrajes Caballeros moros de Granada.
ثم طبع القسم الثانى سنة ١٦١٩م ولم يكن لهذا القسم علاقة كبيرة بالقسم الأول (١٥٤) . ومن مظاهر هذا الصراع كما ورد فى كتاب دى هيتا ما أشار اليه من قيام قتال بين الثغريين (الذين وصفهم دى هيتا بأنهم فرسان شجعان ولكنهم يتسمون بالغيرة والحقد) وبين بنى سراج ، ويقول دى هيتا فى هذا الاطار :

« ونجح أحد فرسان بنى سراج من طعن أحد الثغريين وحضر عشرون من بنى الثغرى الذين أمسكوا بالأسلحة فهب بنو سراج للدفاع عن أنفسهم ، وانضم الى الثغريين بعض الفرسان من حلفائهم وكان عددهم نحو عشرين رجلا ، وكانت حصيلة المعركة أن مات خمسة من الثغريين وخمسة من حلفائهم أما بنو سراج فلم يقتل منهم أحد فى حين جرح حوالى عشرة وقد قطع ذراع أحدهم...» (١٥٥).

---

(١٥١) De Hita, «Guerras civiles», Madrid, 1913, p. 78. Rachel Arié, «Le Royaume, pp. 159-160.

(١٥٢) De Hita, «Guerras civiles», Madrid, 1913, p. 135.

(١٥٣) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 159.

(١٥٤) Ibid.

(١٥٥) De Hita, «Guerras civiles», Madrid, 1913, p. 135.

ويروى بيريث دى هيتا فى كتابه أن السلطان أبا عبد الله محمد (بو عابديل) هو الذى نكب بنى سراج بعد أن صور له الثغريون أعداء بنى سراج بأنهم يدبرون مؤامرة للاطاحة بعرشه ، لذلك انتقم أبو عبد الله من أقوى وأبرز شخصية من هذه الأسرة ، وهى شخصية ابن حامد Aben Hamet . ويستطرد دى هيتا ذاكراً أن أبا عبد الله تحايل على استقدام بنى سراج فى كمين نصبه لهم فى بهو السباع ، وكان أول ضحايا هذا الكمين هو ابن حامد ، قتل فى بيلة ضخمة من الرخام en una taza de alabastro muy grande واعقب ذلك مقتل ستة وثلاثين من بنى سراج فى نفس البهو ، قتلهم رجال كلفهم السلطان بذلك . ويؤكد بيريث دى هيتا أن السلطان أبا عبد الله أصدر بعد ذلك مرسوما بنفى بنى سراج الذين نبذوا الاسلام واعتنقوا المسيحية فور التجائهم الى قشتالة (١٥٦) . ونلاحظ هنا تأثر بيريث دى هيتا الى حد كبير بما ورد فى قصيدة «آه ياحامتى» خاصة عند ما وردت عبارة « بنى سراج هم زهرة غرناطة » كذلك نلاحظ أن بيريث دى هيتا قد جانبه الصواب عندما اعتبر أن قاتل بنى سراج هو أبو عبد الله محمد فقد خلط بين هذا السلطان وبين أبيه مولاى أبى الحسن (١٥٧) ولا شك أن واشنطن ايرفينج قد اعتمد على رواية دى هيتا الخاطئة كما سبق أن ذكرنا فقد اعتبر مثله أن أبا عبد الله هو المتسبب فى نكبة بنى سراج وعلى هذا الأساس فنحن **لا نوافق دى هيتا فيما يتعلق بتنصر بنى سراج وقد أوضحنا فى النقطة السابقة رأينا مفصلا فيما يتعلق بهذا الموضوع .**

وتتساءل **راشيل آرييه** عن السبب الذى دعا بيريث دى هيتا الى اختيار قاعة تحمل اسم بنى سراج حتى اليوم لتكون مسرحا لمذبحة بنى سراج المشهورة ؟ ؟ وتجيب قائلة « مما لا شك فيه أنه كان على دراية بما كان يجرى فى هذه القاعة الرائعة من وقائع مأساوية مشابهة لنكبة بنى سراج طوال عصر بنى الأحمر » (١٥٨) ، وهى فى نفس الوقت تتشكك فى واقعية ما أورده دى هيتا بشأن الصراع الدامى بين الثغريين وبنى سراج وتقول « لو أن بنى سراج كان لهم خصوم فانهم على الأقل سيتركزون فيمن عرفوا باسم Les Venegas وهى أسرة من البلاط النصرى ونتساءل لماذا اختار بيريث دى هيتا الثغريين ليكونوا خصوما لبنى سراج مع أنهم (أى الثغريين) لم يرد ذكرهم كثيراً فى المصادر العربية والقشتالية ... » (١٥٩) .

---

(١٥٦) **Ibid**, p. 170.
(١٥٧) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 160.
(١٥٨) **Ibid**, p. 160.
(١٥٩) **Ibid**, p. 160.

وعلى أية حال فان ما رواه دى هيتا يعبر عن مدى ما كان لبنى سراج من عظمة ومكانة بحيث أنهم سيطروا وتفوقوا على كل الأسرات الغرناطية الكبيرة فى ذلك العصر . ويختلف الباحثون حول تقييم رواية بيريث دى هيتا وانقسموا الى فريقين . أما **الفريق الأول** فيرى أن رواية « الحروب الأهلية فى غرناطة » ليست سوى نموذج يعبر عن روح التعصب الاسبانية ضد الموريسكيين ، فدى هيتا عندما أوجز تاريخ ملوك غرناطة المسلمين ذكر أنهم كلهم ماتوا على أيدى مسلمين مثلهم اما بالسم أو بالقتل أو بالخيانة ، والمسلم كما صوره دى هيتا فى بعض المواضع من روايته انسان يحب المال وطبيعته الغدر (١٦٠) ، كذلك أبرز بعض الصفات السلبية عند المسلمين فهو يصور المسلمات فى أبشع صورة ، فلم يكن يشغلهن فى رأيه سوى الحب والخيانة ، فاذا كانت فاطمة على حد قول دى هيتا تحب موسى فان موسى يحب دراجة ، ودراجة تحب ابن عمار،،،(١٦١)الخ. كما أن المسلمين قد عرفوا بالجبن فاذا تعرض فارس مسلم يسير مع أخته لهجوم بعض المسيحيين بقصد التهجم عليها فانه يتركها لهم ويفر هاربا (١٦٢) ، ويرى دى هيتا أن المسلمين اذا كانوا قد وصلوا الى هذا المستوى الأخلاقى المتدنى ، فان دينهم هو وحده المسؤول عن ذلك .

ويعلق أنصار هذا الفريق بأن بيريث دى هيتا بذلك التعصب ضد المسلمين قد مهد الطريق لتتحول روايته الى أدب تبشيرى فهو عندما يشير الى مثالب المسلمين ويعدد من محاسن المسيحيين يؤكد على أن هذا انما هو رأى المؤرخ المسلم ابن أمين نفسه . ويؤكد **د. جمال عبد الرحمن** أن دى هيتا عندما تعرض لذكر ثورة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين ، قد أشار الى أن الأحداث قد رواها له قائد مسيحى ، ويعترف بأنه شاهد بعض هذه الوقائع بنفسه ثم يزداد تهجمه على المسلمين لدرجة أنه يبتعد عن لغة الأدب الرفيع ، كما أنه حاول أن يفرق بين العقيدة المسيحية والهوية الاسبانية ، فالاسبانى فى رأى دى هيتا يجب أن يكون مسيحيا ويذكر فى روايته أن مسلما تحدى اسبانيا وكأن المسلم ليس اسبانيا (١٦٣) ، ويذكر مثالا آخر أورده دى هيتا عن شاعر مسلم من جاليرا يناجى بلدته فى قصيدة شعرية قائلا : حماك الله من الاسبان الذين يريدون أن يغزوك ، ويشير دى هيتا الى أن الشاعر قد ذكر فى القصيدة أن أجداده غرباء عن اسبانيا التى حكموها قرابة ألف عام (١٦٤) ،

---

(١٦٠) Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», Madrid, 1975, pp. 22-23.
(١٦١) **Ibid**, p. 73. وفى طبعة مدريد ١٩١٣ فى ص ٧٦ .
(١٦٢) Pérez de Hita, «Guerras civiles de Granada», Madrid, 1975, p. 58.
(١٦٣) **Ibid**, p. 160.
(١٦٤) **Ibid**, p. 199.

وفى نهاية روايته يصف دى هيتا المسلمين بأنهم يتصفون بالغدر والخيانة(١٦٥). أما **الفريق الثانى** ويضم الدكتورة **لوثى لوباث بارالت** و **الدكتورة راشيل آرييه** والباحثة الشهيرة **ماريا سوليداد كراسكو** ، فيرون أن بيريث دى هيتا قد نحى التعصب والتحيز لبنى جلدته جانبا فأخذ ينـاصر بنو سراج ويمجد صورتهم وهم من المسلمين ، فـأبرزهم فى أحسن مظهر وأفخم لبـاس وأجمل سلاح كما فصل فى وصف اخلاقياتهم وفروسيتهم النبيلة (١٦٦) .

واختتم دراستى لرواية « دى هيتـا » **بتعليق شخصى** على تلك الرواية وعلى مؤلفها فالمؤلف يخلط فى دراسته مجموعة من القصص الخـرافية التى تتداخل فيها أسماء عربية أعتقد أن جزءاً كبيراً منها مختلقا مع بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، أما دى هيتا نفسه فقد صور الفرسان المسلمين فى غرناطة بـأنهم لا هم لهم الا الحب والمنافسة على المحبوبات الى حد الصراع الدامى وحتى نكبة بنى سراج التى ذكر أنها حدثت فى عهد السلطـان الأخير أبى عبد الله محمد ، فقد اختلق لها دى هيتا سببا مدنيا وهو حب السلطانة غير الشرعى لابن حامد من بنى سراج (١٦٧) .

لقد حاول دى هيتا تصوير المجتمع الاسـلامى فى غرناطة بانه كان مجتمعا خاويا زائفا يعيش أفراده فى حب وسعادة ومتعة وهو بذلك قد جرد هذا المجتمع من مقوماته الحقيقية ، وحتى عند ما أسرف فى وصف محاسن بنى سراج ونسبهم نسبا طيبا ، فقد ذكر فيما بين سطور كتابه كما سبق أن ذكرت ، أن بنى سراج قد ارتدوا عن الاسلام وتنصروا بعد نكبتهم ، وهذا الرأى سبق لى أن ناقشته فى الصفحات الماضية وأثبت عدم صحته وقد أورد دى هيتا فيما بعد أمثلة عديدة تشير الى تنصر بنى سراج وميلهم للنصـارى فقد ذكـر أن بنى سراج كـانوا يعطون الصدقات للمسيحيين فلما تعرضوا للمساءلة من أقرانهم المسلمين رد

---

(١٦٥) جمال عبد الرحمن ، صدى سقوط غرناطة ، ص ٢٠٠

(١٦٦) لوثى لوباث بارالت ، أثر الاسلام ، ص ٥٠ – ٥١
Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 159-160.

وتذكر ماريا سوليداد كراسكو أن ظاهرة تمجيد العرب فى الأدب الاسبانى فى كل من رواية «ابن سراج» وفى «الحروب الأهلية بغرناطة» لدى هيتـا ، كانت ترمى الى الرفع من شأن الفئـة المسلمة المضطهدة وبعث روح الوفاق والتصالح بين المسلمين والاسبان ، وتدلل ماريا سوليداد كراسكو على رأيها بأن بيريث دى هيتا قد أهدى الجزء الثانى من كتابه «الحروب الأهلية» الى أحد النبـلاء «دون الانفانتادو» Duque del Infantado الذى ناضل من أجل حماية المدجنين فى مرسية (ارجع الى María Soledad Carrasco, «The moorish Novel "el Abencerraje"», and Pérez de Hita, Boston, 1976.

لوثى لوباث بارالت ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(١٦٧) Rachel Arié, «Le Royaume», p. 160.

فارس من بنى سراج قائلا « نعم نفعل ذلك فى حب الله ونعطى الصدقة للمحتاج سواء كان مسلما أو مسيحيا،،،» ثم أعقب دى هيتا هذا الرد بعبارة يقول أن ابن سراج ذكرها «لأن المسيحيين أيضا يعطون الصدقات لفقراء المسلمين...»(١٦٨).

فدى هيتا عندما حاول اظهار موضوعيته وحياديته وتعاطفه مع بعض الفرسان المسلمين ، اختــار بنى سراج ، وهو بذلك يكون قــد ربط بين مثــاليتهم وبين تنصرهم وارتدادهم عن الاسلام ، وذلك بــلا شك يحمل التعصب الشديد المقنع ضد الاسلام والمسلمين ، لذلك فنحن نميل الى الأخذ برأى الفريق الأول فيما يتعلق بنقد تلك الرواية الاسبانية .

(٤)

قصة « آخر بنى سراج » للفيكونت دوشاتوبريان

تحول بنو سراج فرسان غرناطة وأشهر انجادها بفضل الروايتين السابقتين «ابن سراج» و «حروب أهلية» الى ما يشبه الأسطورة ، وأصبحوا مصدر الهام ووحى لكثير من الكتابات الغربية الأوروبية منذ القرن السادس عشر الى حد أننا نجد تاريخ ابن درايث من بنى سراج مسجلا فى أشعار الرومانسيرو الموريسكى دى تيمونيدا De Timoneda وكذلك لوكــاس رودريجث Lucas Rodriguez ثم اصطنعه لوبى دى بيجا Lope de Vega فى عملــه El remedio en la desdicha . لقد حظيت رواية بيريث دى هيتا على وجه الخصوص بنجاح عظيم فى اسبانيا فكان لها ما يقرب من تسع وثلاثين طبعة مجددة حتى نهــاية القرن السابع عشر حتى بعد أن أثــارت رواية «دون كيشوت» التى ألفهــا ثرفانتس Cervantes السخرية من روايات الفروسية .

وفى منتصف القرن الثامن عشر مثلت على المسرح الاسبانى قصة غير معروفة المؤلف عنوانهــا «موت بنى سراج والشريفة المفضوحة» . كمــا تابع الايطــالى خيرولامو جراتزيــانى عن قرب روايــة بيــريث دى هيتــا المتعلقة بمصرع بنى سراج فنظم قصيدة ملحمية عنوانها فتح غرنــاطة il conquisto di Granata وفى فرنسا أيضا انتشرت أسطورة بنى سراج واشتهرت كذلك قصة ابن درايث وشريفة المسلمة ، بين رجــال الأدب منــذ طليعة القرن ١٧ م. بفضل الترجمــة الفرنسية لديانا دى منتميور Diana De Montemayor .

---

(١٦٨) جمال عبد الرحمن ، ص ١٩٨ De Hita, «Guerras», Madrid, 1975, p. 62

وفى سنة ١٦٨٣ م ترجمت رواية بيريث دى هيتا للمرة الثانية على يد الآنسة De la Roche Guilhen ، كمـا اتخـذ الأدب الفرنسى فى صالـون مدام دى رمـبوييه Madame De Rambouillet من التقاليد الرفيعة التى عالجها دى هيتا بغرنـاطة الاسلامية انموذجاً . وتسمى فانسان فواتير Vincent Voiture الذى كـان شديد الاعجاب بـالرومانثيرو المرسى بـاسم الملك الصغير el Rey chiquito كما زعم الشاعر اسحق دى سراد أنه أحد أبناء أسرة بنى سراج .

وصدرت فى عام ١٦٦٠ م أول رواية مستوحاة من الانـدلس فى فرنسا . وفى سنة ١٦٧٠ م صدرت رواية أخرى على نسق رواية دى هيتا اسمها «فتوح الاسبان لغرناطة» لجون ديدنJohn Dyden ، وطبعت سنة ١٦٧٢ م وفيها نشهد الصراع طويل الأمد بين بنى سراج والثغريين .

وفى ختام هذه الجولة الطويلة نشهد فى بداية القرن ١٩ رواية عن مأساة بنى سراج سجلها الكاتب الفرنسى الشهير الفيكونت شاتوبريان ، وقد ظهرت روايته هذه فى سنة ١٨٢٦ م ونجد أن وقـائعها تدور بعد سقوط غرناطة بثـلاثين سنة تقريبا (١٦٩) .

وبطـل قصة شاتوبريان هو الفـارس «ابن حامد» من بنى السراج وهو ابن الفارس السراجى «ابن حامد» (على حد قول شاتوبريان) الذى اتهمه بنو الثغرى بعشق السلطانة وهو ما تسبب فى نكبة بنى سراج كما ورد فى رواية دى هيتا .

وكان البطل ابن حامد يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما عندما قرر الرحيل من تونس (حيث يشير شاتوبريان أن بنى سراج قد استقروا بها) الى اسبـانيا لزيارة بلاد أجداده فأبحر من تونس حتى وصل قرطاجنة الاندلس ، ومن هناك توجه الى غرناطة وهنـاك فى غرناطة التقى ابن حامد ، بفتـاة اسبانية حسناء ، اسمها أدماء هام بها حبـاً وسمعها ذات يوم تغنى زجلا قشتـاليا فى تاريخ بنى سراج وبنى الثغرى (١٧٠) . ويذكر شاتوبريان فى قصته أن ابن حامد قد اكتشف أن حبيبته الاسبانية هى من سلالة آل بيغـار الذى منهم السيد القنبيطور بطـل رواية الشاعر كورنايل «فاتح بلنسية» (١٧١) .

وقد تنزه الحبيبان فى قصر الحمراء ، وكان ذلك مجالا لآن يصف شاتوبران هذا القصر ويذكر شاتوبريان أن ابن حامد بن سراج قد عزم على التزوج بحبيبته

---

(١٦٩) Rachel Arié, «Le Royaume», pp. 161-163.
(١٧٠) شاتوبريان ، آخر بنى سراج ، ص ١٦
(١٧١) المرجع السابق ، ص ١٧
(١٧٢) يذكر الأمير شكيب أرسلان أن الأبيـات للبحترى وأن فيهـا بعض الفاظ توافق المقـام (المرجع السابق ، ص ٥٨) .

ادماء ولكنهـا اشترطت عليه تـرك الاسلام فرفض ، وهنـا نؤكد مرة أخرى أن الروايات والقصص الشعبية أثبتت الى جانب الوقائع التاريخية تمسك بنى سراج باسلامهم بخلاف ما أورده دى هيتا عن تنصرهم .

واذا عدنا الى أحداث رواية شاتوبريان نجد أن كتابا يصل الى ابن حامد من تونس يعلمه بأن والدته على شفا الموت ، فودع ابن حامد محبوبته وعاد لرؤية والدته . وبعد فترة يرجع ابن حامد للأندلس وفى ذلك الوقت كان الفارس الاسبانى الدون كارلوس شقيق ادماء محبوبة ابن سراج ، يصر على تزويجها من الفارس الفرنسى الشهير لوترك ، ولكن أدماء صممت على الارتبـاط بحبيبها ابن حامد بشرط أن يتنصر . ولما عرف ابن حامد أن أدماء هى من سلالة السيد عدو أجداده، وعرف دون كارلوس أن ابن سراج هو آخر بنى سراج ، عدل ابن حامد عن فكرة زواج أدماء ، ورحل عائـدا الى افريقية وانقطع خبره فى حين بقيت أدماء بدون زواج متيمة بحبيبها العربى هائمة فى أكثر الأحيان فى جبال مالقة تنظر الى البحر الذى كان يأتى منه .

وينهى شاتوبريان قصته بتصوير مقبرة آخر فـارس من بنى سراج فى تونس بقوله «عند خروجك من تونس من الباب المؤدى الى أطلال قرطاجنة تجد مقبرة وتجد فى زاوية تلك المقبرة شجرة نخل تحتها ضريح قد أرشدت اليه يقال له هناك قبـر آخر بنى سراج ، ليس فيـه شىء يستحق الوصف سوى ان فى وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة حسب عادة مدافن المسلمين ...

وقد أورد بعض أبيات شعرية منها :

اقـصر سراج لا عـزاء لـمغـرم ... ولا قصر عن دمع وان كان من دم

افى كـل عـام لا تـزل مروعـا ... بـفـقـد نـعـى تـارة أو بتـوأم

مضى أهلـك الأخيـار الا أقلهم ... وبادوا كمـا بادت أوائـل جرهم

ومنها :

فـكـل لـه قبـر غـريب ببلـدة ... فمن منجد نـائى الضريح وقتهم

قبـور بـأطرف البـلاد كـأنمـا ... مـواقعهـا منهـا مـواقـع أنجم

بتونس الخضراء قبر ابن حامـد ... بعيدا عن الباكين فى كل مأتم (١٧٢)

الدكتورة سحر عبد العزيز سالم

منشآت سلاطين بنى نصر
فى قصـور الحمـــراء

يعرف بنو نصر أيضا ببنى الأحمر وهم آخر ملوك دولـــة الاسلام فى الاندلس فى مراحلها الأخيرة ، وينتسبون الى محمد بن يوسف بن نصر (٦٣٥ – ٦٧١ هـ) (١٢٣٨ – ١٢٧٢ م) (١) الذى يرجع اليه الفضل الأعظم فى وضـــع أساس هذه السلطنة ولـــم شعث ما تبقى من مـــدن الاسلام بعد المـــوجة الضارية لحركـــة الاسترداد التى واكبت انهيار دولة الموحدين فى الاندلس ، وأطاحت بكيان دولة الاسلام بعد ضم معظم قواعده الرئيسية الى الممالك المسيحية فى اسبـــانيا ، وقد اتخذ محمد بن يوسف من مدينة غرناطة قاعـــدة لدولته ومقرا لسلطنته ، ولـــم تلبث هذه السلطنة رغم صغر مساحتها أن تألقت فى أيامه بفضل ما كان يتميز به من عقل وحكمة وحسن تدبير وما تلقاه من تأييد أهل الاندلس فعقدوا عليه الأمل فى انقاذ ما بقى من دولة الاسلام من الخطر الذى كان يحيط بها (٢) ,

ولقد حتمت الظروف السيئة التى مرت بها الاندلس آنذاك تأليف جبهة قوية أمام هذا الخطر المسيحى الجاثم ، فعمد محمد بن نصر على توسيع رقعة مملكته فاستولى على العديد من المدن والقرى المحيطة بسلطنته ، ووفق ابن نصر فى ذلك

---

(١) محمد بن نصر : هو الغالب بالله أمير المسلمين الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر ابن قيس الخزرجى ، مؤسس الدولة النصرية ويصل نسب بنى نصر الى الصحابى سعد بن عبـــادة الانصارى ، وكثيرا ما تغنى الشعراء بهذا النسب والعديد من الابيات الشعرية المنقوشة على جدران الحمراء تشير الى ذلك ، انظر :

- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، جـ ٤ ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٧٠ .
- ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ، ص ٣٣٠ .
- ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، ص ٣٣ , ديوان ابن الخطيب ، ص ٥٣٢ .

(٢) مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ٣٨٤ .

- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٨٤ .
- عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الاندلس ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ١٥ .

توفيقا كبيرا ، فقامت مملكة غرناطة بين مظاهر الاضطراب التى كانت تجتاح ما بقى من المدن الاسلامية فى الاندلس ، وقدر لها أن تصمد نحو قرنين ونصف قرن من الزمان أمام العواصف العاتية والأنواء على الرغم من الصراع غير المتكافىء بين النصرانية والاسلام ، وما عانته غرناطة من حروب داخلية (٣) .

وكان لزاما على محمد بن نصر أن يختار مقر سلطنته فى موقع استراتيجى منيع، ووقع اختياره على معقل حصين يقع فوق القمة المعروفة بالسبيكة وأخذ فى تعميره وترميم أسواره واقامة قصبة حصينة تحيط بها المتنزهات وكانت هذه القصبة النواة الاولى للقصور المعروفة بالحمراء والتى ترجع الى سلاطين بنى نصر (٤) . ونلاحظ عدم وجود صلة بين تسمية القصر بالحمراء وبنى الأحمر ، فتسمية القصر تسمية قديمة ترجع الى الفترة السابقة على عصر بنى نصر ، أما تسمية بنى الأحمر بهذا الاسم فترجع الى جدهم عقيل بن نصر الذى لقب بالأحمر لشقرة فيه ، وقد استمر هذا اللون يظهر فى العديد من أفراد الأسرة (٥) .

والمجموعة الحالية لقصور الحمراء يرجع الفضل فى انشائها الى بعض سلاطين بنى نصر أضاف كل منهم قصرا أو ابتنى مجلسا داخل برج من الأبراج تتقدمه بركة صناعية أو زود أحد القصور بصحن تتوسطه نافورة ، ويصف ابن الخطيب مدينة السلاطين التى تشتمل على قصور الحمراء المطلة على مدينة غرناطة بقوله : «مدينة الحمراء دار الملك مطلة على معمورها فى سمت القبلة ، تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعاقل المنيعة والقصور الرفيعة ، تغشى العيون وتبهر العقول وتنحدر من فضول مياهها وأفياض حوائرها وبركها فى سفحة جداول تسمع على البعد أهزاجها ، ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلفة ، والأدواح الملتفة فيصير من ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات

---

(٣) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣٨٤ .

– يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى الاحمر ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

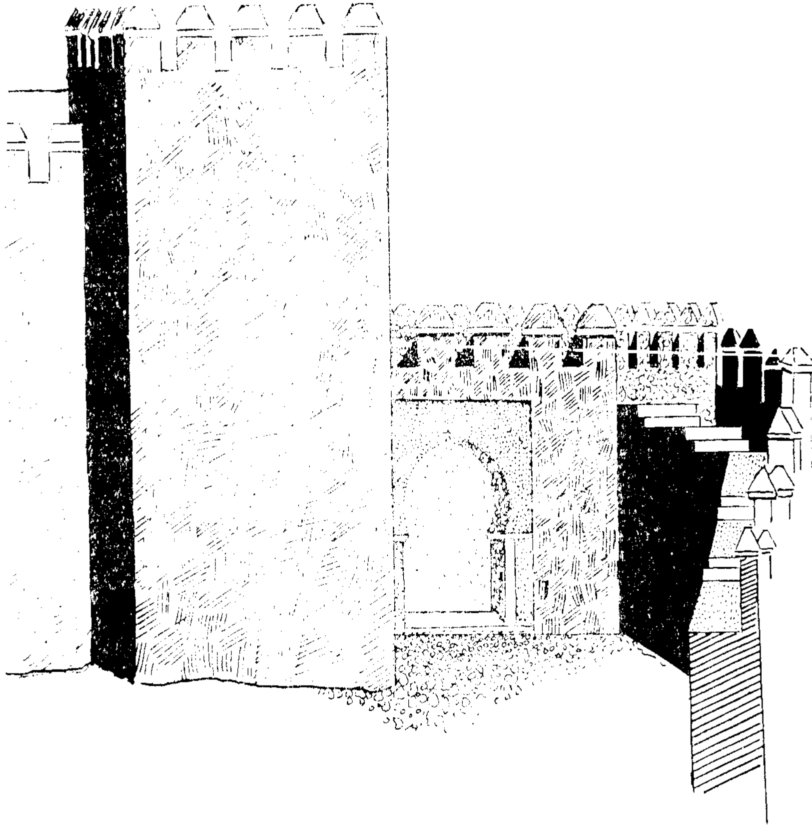
— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra» (historia de los sultanes de Granada). Madrid, 1978, p. 22. Grabsr: «The Alhambra», p. 35.

(٥) اتخذ ملوك بنى نصر من اللون الأحمر شعارا لهم فى قصورهم بالحمراء واعلامهم وقبابهم وخيامهم بل وفى لون الورق الذى يكتبون عليه رسائلهم السلطانية ، ووردت أمثلة لذلك فى أشعار ابن الخطيب وابن زمرك .

– المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .

– مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٧٧ .

— Lafuente Alcántara: «Inscripciones árabes de Granada», p. 21.



المدخل الى قصور الحمراء

البيض أثناء خضرائه فلا تعرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين» (٦) .

وينطبق وصف ابن الخطيب الدقيق على الأسوار والأبراج والبساتين المحيطة بالحمراء على الرغم من التعديلات العديدة التى تعرضت لها الحمراء بعد سقوطها فى أيدي الملكين الكاثوليكيين ، وبالرغم من ذلك فمازالت القصور بتخطيطها الأصلى على أيام سلاطين بنى نصر .

والحمراء مدينة ملكية تتخذ شكل الحصن الذى يقام فى موقع مرتفع منيع يتميز بحصانته ، وهى فى ذلك تشبه الى حد كبير قلعة الجبل فى القاهرة ، وقلعة حلب فى بلاد الشام ، وهذا الطراز من المدن المحصنة أصبح الطابع المميز للعديد من المدن الاسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (٧) .

وتضم الحمراء عددا من الوحدات المعمارية بعضها قاعات ومجالس وبعضها أبهاء وبساتين تتخللها الجداول والبرك الصناعية خطط لها فوق تل السبيكة الذى عرف بهذا الاسم لتحوله الى اللون الذهبى عندما تسقط عليه أشعة الشمس (٨) .

وقد اتسعت الحمراء بما أضيف اليها من قصور وأبراج وقاعات ومرافق مختلفة ومتعددة الأغراض ، حتى أصبحت بحق مدينة ملكية تضم القصور والحمامات والمساجد السلطانية والمتنزهات وصهاريج المياه ، وتطوقها الأسوار والأبراج المحصنة (٩) .

وأقدم قصور بنى نصر التى أقيمت بالحمراء كانت من انشاء السلطان الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر ، الذى وضع النواة الاولى للأسوار والقصبة

---

(٦) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٢٤ .
– ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ ١ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .
ولمزيد من التفاصيل عن غرناطة فى عصر بنى نصر ، أنظر :
— Mujtar al-Abbadi: «El reino de Granada en la época de Muhamad V». Madrid, 1973.
— Rachel Arié: «L'Espagne musulmane au temps des nasrides», París, 1973.

(٧) جرابار : العمارة ، مقال فى كتاب تراث الاسلام ، ترجمة حسين مؤنس سلسلة عالم المعرفة عدد ١١ ، الكويت ١٩٧٨ ، ص ٤٢ .
— Grabar: «The Alhambra», pp. 99-100.

(٨) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
— Torres Balbás: «La Alhambra», p. 3.

(٩) عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٦ ، ص ١٤٢ ، ٢٤٣ .

والقصور فوق القمة المعروفة «بالسبيكة» ثم تتابعت الزيادات فى القصور والمجالس والقاعات على يدى عدد من سلاطين بنى نصر شارك كل منهم بالاضافة والزيادة فى انشاء مجموعة قصور الحمراء (١٠) .

ويمكننا أن نقسم مجموعة الأبنية المؤلفة لقصور الحمراء الى مجموعتين المجموعة الاولى وتنسب الى السلطان يوسف الاول (١١) (٧٣٣ – ٧٥٥ هـ) (١٣٣٣ – ١٣٥٤ م) وتشمل باب الشريعة Puerta de la Justicia والحمامات السلطانية los baños ، وكذلك برج الأسيرة Torre de la Cautiva ومصلى البرطل El Partal وبرج أبى الحجاج Torre de Abulḥaŷŷāŷ وقاعة السفراء Salón de Embajadores والمجموعة الثانية وتنسب الى السلطان محمد الخامس الغنى بالله (١٢) ، وتضم مجموعة بهو الأسود أو السباع Patio de los Leones الذى يضم قاعتى الأختين Sala de las Dos Hermanas وبنى سراج Sala de los Abencerrajes المتقابلتين , بالاضافة الى قاعة الملوك Sala de los Reyes وقاعة المقربصات Sala de los Mocarabes بالاضافة الى النافورة التى تتخذ شكل قصعة مستديرة يحملها اثنى عشر أسدا تمج المياه من أفواهها ، ومن أبواب الحمراء باب النبيذ (١٣) Puerta del Vino

---

(١٠) Torres Balbás: «Ars hispanie», p. 84. Torres Balbás: «La Alhambra», p. 4.
— Grabar: «The Alhambra», p. 36.

(١١) Marçais: «L'Architecture musulmane d'Occident», p. 534.
— Gallego y Burín: «Granada», p. 75.

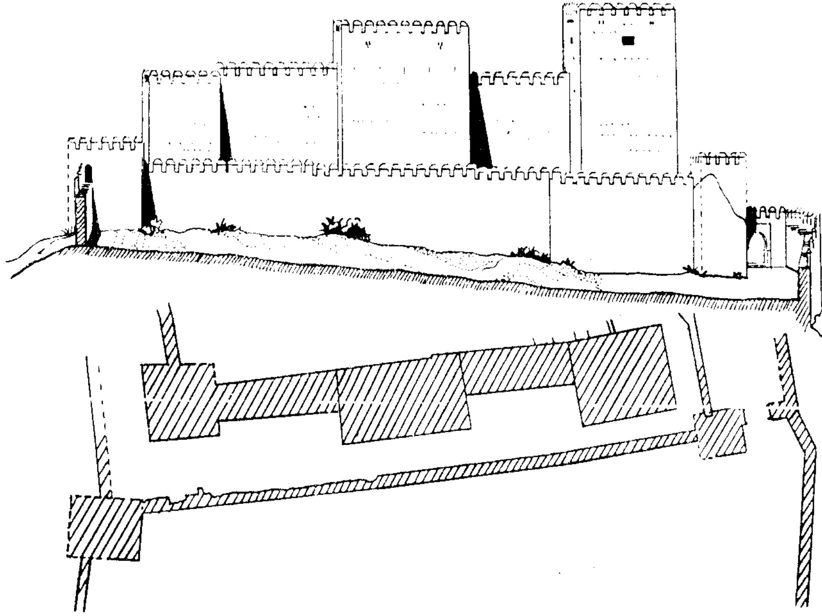
سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون فى دولة الاسلام ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٥٢٤ .

(١٢) محمد الخامس : هو الغنى بالله محمد بن يوسف الاول ولى الملك بعد أبيه ، وكان عفيف النفس مائلا الى الخير ، محبا للعلم والعلماء كلف بأعمال العمران والبنيان وقد تولى الحكم مرتين ، المرة الاولى (٧٥٥ – ٧٦٠ هـ) (١٣٥٤ – ١٣٥٩ م) ثم وقعت فتنة أبعدته عن حكمه ما يقرب من سنة ثم تولى الحكم مرة أخرى (٧٦٢ – ٧٩٤ هـ) (١٣٦١ – ١٣٩٢ م) ، انظر :

- ابن خلدون : جـ ٧ ، ص ٣٣٢
- ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ، ٢٧
- ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ١٢٠
- ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٣٥٢
- انظر أيضا : دراسة د. مختار العبادى عن مملكة غرناطة فى عصر محمد الخامس (باللغة الاسبانية) :

— Mujtar al-Abbadi: «El reino de Granada en la época de Muhamad V».

(١٣) عبد العزيز سالم : العمارة الاسلامية فى الاندلس وتطورها ، مجلة علم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٧ ، ص ١٠٠ ، ١٠٥
— Torres Balbás: «La Alhambra», p. 20.
— Puertas: «Plano guía de la Alhambra», Madrid, 1977, p. 19.



الأسوار من الخــارج

أمـا المجموعة الاخرى من القصور فترجع الى عـدد من سلاطين بنى نصر ، ساهم كـل منهم بالاضافة والتجديد والتعديل فى قصور الحمراء ، فيرجع قصر البرطـل El Partal الى السلطان محمد الثالث (١٤) (٧٠١ – ٧٠٨ هـ) (١٣٠٢ – ١٣٠٨ م) وكـذلك مسجد الحمراء ، ويرجع الفضـل فى انشاء قصر جنة العريف Generalife الى السلطان أبو الوليد اسماعيل (١٥) (٧١٣ – ٧٢٥ هـ) (١٣١٣ – ١٣٢٤ م) ويرجع قصر أو برج الأميرات Torre de las Infantas الى السلطان محمد السابع ، كما أسهم سلاطين آخرون فى الزيادة والتجديد بقصور الحمراء ببعض الاضافات فى أبهـاء القصور وبساتينها سواء بالبنيـان أو الزخرفة مما يصعب أحيانا تحديد وتمييز أعمال كل منهم عن الآخر (١٦) .

ونلاحظ أن معظم مسميات القاعات والأبهاء والأبراج ، ترجع فى معظم الاحيان الى عصور حديثة وأغلبها من وضع الاسبان وترتبط فى كثير من الاحيان بالروايات والقصص الأسطورية ، وكثـيرا ما يطلق على القـاعة الواحدة عدة مسميـات ، فقاعة السفراء تسمى قاعة العرش ، ويطلق عليها أيضا قاعـة قمارش أو قصر الريحان (١٧) .

---

(١٤) السلطان محمد الثالث : هو ثالث ملوك بنى نصر وابن السلطان محمد الثانى ، يكنى أبا عبد الله ويلقب بالمخلوع ، تسلم أيام أبيه مسئوليات عديدة فتمرس على شئون الحكم وادارة البلاد ، واستأنف خطى أبيه فى الجهاد فزحف على المعاقل القشتالية فى جيان واحتل عدد من الحصون ، ولم يهنأ محمد الثالث بالحكم طويلا ، وقيل أنه خلع بتدبير من أخيه نصر الذى تولى الحكم من بعده ، انظر :

– تاريخ ابن خلدون ، جـ ٧ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠
– ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٧٠
— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra», p. 20.

(١٥) السلطان أبو الوليد اسماعيل : هو أبو الـوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيـل النصر ، خامس ملوك بنى الاحمر ، كان عفيف النفس ، لا يعاقر الخمر ويميل الى الصيد ، وقد بذل العدل فى رعيته واجتهد فى الدفاع عن مملكته ، كما اشتد على أهل البدع مختصرا الخوض فى أمور الدين وله القول المعروف : أصول الدين عندى «قل هو الله أحد» وهذا «مشيرا الى سيفه» وله حروب وغزوات مع القشتاليين وزحف الى بعض المدن المسيحية ، وقد مات السلطان أبو الوليد قتيلا على يدى ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة .

انظر :

– ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٧٨ ، ٩٩
– ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠
– المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٤٤٩

(١٦) Puertas: «Plano guía», pp. 2-25.
— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 85.
— Torres Balbás: «La Alhambra», p. 3.

(١٧) Torres Balbás: «Ars hispaniae», p. 103.
— Puertas: «La fachada del Palacio de Comares», I. Granada, 1981.
— Pavón Maldonado: «Estudios sobre la Alhambra», pp. 66-70.

وقد اختلف العلماء حول اسم قمارش ، فنسبه بعضهم الى بعض الصناع من قرية قمارش الواقعة بالقرب من مالقة وشاركوا فى بناء القاعة بينما يرى بعضهم الآخر أن تسمية القــاعة ترجع الى جماعة من الحراس ينتسبون الى هذه القريــة فسمى البرج باسمهم ، ويرى البعض الآخر أن كلمة قمارش تحريف لكلمة قمرية أى النوافذ التى يتسلل منها ضوء القمر والتى تتوفر بكثرة فى هذه القاعة (١٨) .

وقد استدل الأستاذ جرثيه جومث من نصوص قديمة معاصرة للوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب على المسميات القديمة لبعض الابراج والقاعات ، فقاعة الاختين كانت تسمى «المشور الجديد» تمييزا لهــا عن المشور القديم الذى يقــع حاليا بالقرب من مدخــل القصر ، وبرج أبو الحجاج «أو برج مخدع الملكة» كان يسمى برج النصر (١٩) .

ويرجع الى السلطــان أبى الحجاج يوسف الاول الفضل فى اقــامة العديد من المنشآت المعمارية فى غرناطة ومناطق أخرى بجنوب الاندلس اشباعــا لهوايته فى البنــاء والتشييد والعمران فهو الذى أنشأ المدرسة النصرية فى غرناطة فى عــام ٧٥٠ هـ, على يدى حاجبــه أبى النعيم رضوان (٢٠) وقد تعرضت المدرسة بعــد سقوط غرناطة للتخريب وتغيرت معالمها الأصلية ولم يتبق منها الا جزء صغير من جدار القبلة ويحتفظ متحف الاثار الاقليمى بغرناطة ببقايا اللوحة التأسيسية التى تتضمن تاريخ انشاء المدرسة (٢١) .

واهتم يوسف الاول بتحصين مدن مملكته فأقام حصنا بالقرب من مدينة بسطة ذكره ابن الخطيب ، كما قــام بتجديد بنيان حصن كان مقــاما بجبل فاروة على مقربة من قصبة مالقة يشرف على البحر مباشرة ولا تزال بقايا أسواره وأبراجه قائمة حتى اليوم (٢٢) . وينسب اليه تجديد بناء أسوار ربض البيازين فى غرناطة

---

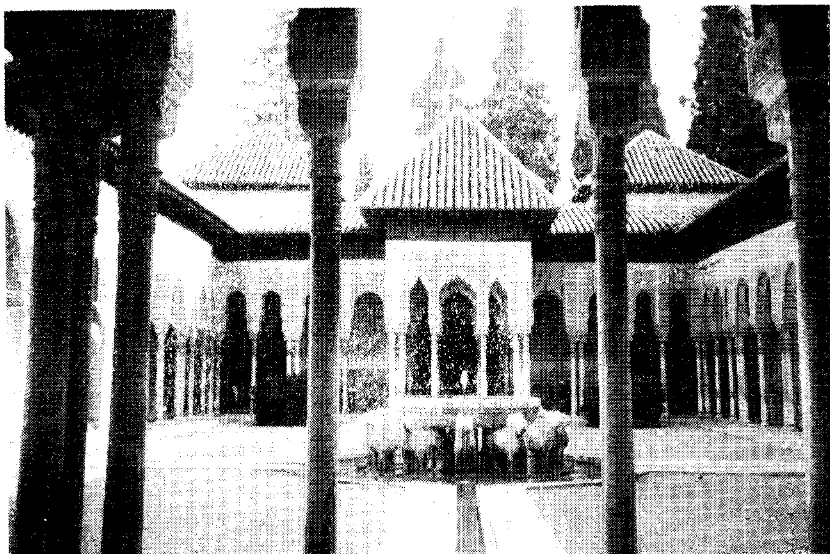
(١٨) Torres Balbás: «Ars hispaniae», p. 85.
— Puertas: «Plano guía», p. 14.

(١٩) García Gómez: «Foco de antigua luz sobre la Alhambra». Madrid, 1988, página 71.

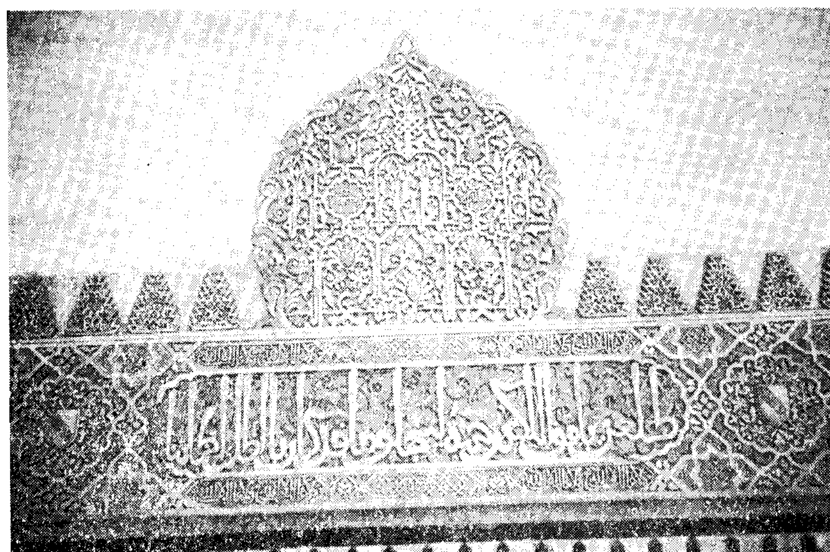
(٢٠) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ٤ ، ص ٣١٨
- ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، ص ١٠٩
- المقرى : نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٤٥٧

(٢١) Lévi-Provençal: «Inscriptiones», p. 159.
— Torres Balbás: «Ars hispaniae», p. 175.

(٢٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٩٦
- ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى المغرب والانــدلس ، تحقيق مختــار العبادى ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ٣١
— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra», p. 38.
— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 153 .



بهو الأسود ويرجع انشائه الى السلطان محمد الخامس



نقش كتـابى من بهو الريحان

على يدى حاجبه أبى النعيم رضوان بالاضافة الى بعض التجديدات والزخرفة فى قصر شنيل الذى يطل على وادى شنيل فى الناحية الشمالية الشرقية من غرناطة (٢٣) .

كما تدين الحمراء بأجمل قصورها وبركها ونوافيرها للسلطان يوسف الاول فقد شيد أجمل القاعات والأبهاء التى تتميز بثرائها الزخرفى وتنوع عناصرها الزخرفية وتعاظم قيمتها الفنية والجمالية (٢٤) .

فاليه ينسب السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة ويعلو مدخل هذا الباب نقش كتابى يتضمن تاريخ الانشاء واسم السلطان يوسف الاول الذى أمر ببنائه (٢٥) .

وينسب اليه أيضا بناء القصر الملكى الذى يتقدمه بهو الريحان ويطلق على هذا القصر قاعة السفراء أو قاعة العرش ويستفاد من نقوش تلك القاعة أنها مخصصة للسلطان وفيها كان مجلسه الذى يستقبل فيه السفارات والزخارف الجدارية بهذه القاعة يعجز عنها الوصف ، وقوامها العناصر الهندسية والتوريقات النباتية والنقوش الكتابية المنقوشة فى الجص بألوان زاهية يغلب عليها اللون الذهبى ، وتطل هذه القاعة على بهو الريحان ببائكة تتألف من سبعة عقود نصف دائرية العقد الأوسط منها أكثرها ارتفاعا تعلوها شبكة من المعينات (٢٦) وزودت قاعة السفراء بمناظر أو شرفات تطل على مرتفع البيازين الذى يفصله وادى حدره عن مرتفع الحمراء ، وتزدان كل منظرة بقمرية يزدان عقداها التوأمان بزخارف رائعة تثير الاعجاب بجمال تكويناتها ودقة تنفيذها ، وتطل هذه المناظر على أخدود يجرى فيه وادى حدره بين أشجار كثيفة تكسو

---

(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٥١٧
— Seco de Lucena: «El libro de la Alhambra», p. 38.
— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 153.

(٢٤) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ ٤ ، ص ٣١٨
— عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص ١٤٤
— García Gómez: «Foco de antigua luz», p. 23.
— Puertas: «Plano guía», p. 2.

(٢٥) Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 85.
— Marçais: «L'Architecture musulmane d'Occident», p. 534.
— Puertas: «Plano guía», p. 2.
— عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الاندلس ، ص ٢٠٤

(٢٦) Torres Balbás: «La Alhambra», p. 16.
— Pavón Maldonado: «Estudios sobre la Alhambra», p. 66.
— Puertas: «Plano guía», p. 14.
— عبد العزيز سالم : العمارة الاسلامية فى الاندلس وتطورها ، ص ١٠٣

مدرجات الأخدود وتجعل منه لوحة فنية طبيعية بلغت الغاية فى الروعة والجمال (٢٧) .

وينسب أيضا الى السلطان يوسف الاول الحمامات السلطانية الواقعة فى الجبهة الشرقية من قاعة السفراء وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة تتضمن المدخل المنكسر والغرفة الباردة والغرفة الساخنة والموقد وتتضمن جدرانها نقوشا ترجع الى السلطان يوسف الاول وابنه محمد الغنى بالله ، وقد تعرضت تلك الحمامات لاصلاحات عديدة أجريت فى القرن السادس عشر (٢٨) .

ويرجع أيضا الى السلطان يوسف الاول برج الاسيرة وهو أحد الابراج المحيطة بالقصور الملكية ويقع البرج فى الجهة الشمالية الشرقية من قصور الحمراء ، والبرج وان كان يبدو من الخارج حصنا عسكريا فهو قصر رائع من الداخل فتزدان جدرانه بالزخارف الجصية والنقوش الكتابية وتربيعات الزليج ، وما زال يحتفظ بنقوشه وزخارفه الأصلية حتى يومنا هذا على الرغم من بعض الاصلاحات التى تعرض لها البرج فى أعقاب سقوط غرناطة (٢٩) .

وعلى مسافة غير بعيدة من برج الاسيرة من الجهة الشمالية يقع مصلى البرطل الذى شيده السلطان يوسف الاول ، وهو مصلى ملكى صغير المساحة مربع الشكل مازال يحتفظ بنقوشه وزخارفه الجصية لا سيما جدار القبلة والمحراب (٣٠) .

ومن الابراج التى يرجع الفضل فى انشائها الى السلطان يوسف الاول برج أبى الحجاج الذى تعرض للتعديل والتغيير على مر السنين ولم يتبق من زخارفه ونقوشه الكتابية الا القليل النادر ومنها نقوش تتضمن شعار السلطان يوسف الاول وشعار بنى نصر «**ولا غالب الا الله**» ونقوش ترجع الى عهد ابنه محمد الغنى بالله ، هذا بالاضافة الى تصاوير ورسوم أوربية حديثة ترجع الى عصر النهضة (٣١) .

---

(٢٧) Torres Balbás: «La Alhambra», p. 40.
— Puertas: «Plano guía», p. 14.

(٢٨) عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الاندلس ، ص ٢٠٦
— Grabar: «The Alhambra», p. 75.
— Jesús Bermúdez: «La Alhambra», p. 51.

(٢٩) Grabar: «The Alhambra», p. 19.
— Pavón Maldonado: «Estudios sobre la Alhambra», p. 66.

(٣٠) Jesús Bermúdez: «La Alhambra», p. 57.
— Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 124.
— Gallego y Burín: «Granada», p. 116.

(٣١) Torres Balbás: «Ars Hispaniae», p. 109.
— Pavón Maldonado: «La Torre de Abulḥaŷŷaŷ de la Alhambra», p. 430.

ومن أعمال يوسف الاول بعض الأبراج الدفاعية الحصينة التى تحيط بقصور الحمراء فينسب اليه السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء ، وبرج ماتشوكا ، وباب الطباق السبع ويقع فى الجهة الجنوبية ، وبرج القناديل «القاضى» ويقع فى الجهة الشمالية الشرقية بجوار برج الاسيرة ، ومعظم هذه الابراج ذات طابع عسكرى خالص وتختلف بين الشكل المربع والمستطيل ومزودة بشرفات ومزاغل للدفاع وتتميز بشدة تحصينها فمهمتها دفاعية بحتة (٣٢) .

محمد الجمل

---

(٣٢) Torres Balbás: «La Alhambra», pp. 24-25.
— Puertas: «Plano guía», p. 2.
— Jesús Bermúdez: «La Alhambra», pp. 26-29.
— Gallego y Burín: «Granada», pp. 117-120.

متى وأين تصوف لسان الـدين ابن الخطـيب ؟

عرف التاريخ والمؤرخون لسان الدين ابن الخطيب شعلة ذكاء وظرف معرفة ، وعنوان حضارة ، وحامل لواء ثقافة ... هيمن بقلمه وفكره . ودهائه ، وتدبيره السرى والعلنى . على مجرى سياسة بنى الأحمر الداخلية ، وعلاقاتهم الخارجية المتحركة . المتلونة . التى كانت ترفعها رافعة ، وتخفضها خافضة مع جيرانهم فى الأندلس ، ومع حلفائهم فى أقطار المغرب العربى مدة غير قصيرة من الزمن .

كما عرفته المجامع والأوساط العلمية والأدبية القريبة من غرناطة ، والبعيدة عنها ... صاحب قلم سيال ، وثقـافة متدفقة ، وموضوعات متنوعة . لا يغيض فيضها ، ولا ينضب معينها : شعرا ونثرا .

واتـته الظروف ، وابتسم له الحظ ، فاشتد ولان ، وضر ، ونفـع . ورفع ، ووضع . فكان حركة دائبة ، فى الكتابة ، والوزارة ، والسفارة . وكان حظ ملوك بنى الأحمر أسعد من غيرهم ، لوجود هذه الأداة الفاعلة . فى بلاطهم . تسد فراغا . لا يسده غيرها .

وكان لسان الدين – وهذه ظروف حياته – لا ينسى ذاتيته . فيجمع الكتب ، ويتـابع القراءة والكتـابة والاطلاع والتصنيف والتـأليف ومراسلة الأعـلام المرموقين ، من حملة الأقلام والأفكار فى عدة أمصار .

ومن أجل ذلك لم تبتلعه المنـاصب السياسية والحياة الرسمية ، ولم يضيع ملكاته الفنية ولا معلوماته الأدبية . وبذلك تضخم تراثه من أشعار نظمها ، وكتب ألفها ، ورسائل حبرها ، وموضوعات : جدية وهزلية ؛ شغل أوقاته وأقلامه بها .

ولسنا هنا بصدد اعادة ما بحث ، وانما نحن هنا نقف وقفة تأمل فى ظاهرة . خاصة وهى :

– متى وأين . تصوف هذا النابغة العبقرى ؟ ولا نعنى بتصوف ابن الخطيب المشاعر الدينية فى نظمه وتأليفه ولا رسائله ، التى كان يحبرها ، ليحملها الحجاج

الى الروضة النبوية المكرمة ، فى المدينة المنورة شاكية . باكية راجية متشفعة ... تارة نثرا ... وتارة شعرا ... !

كما لا نعنى ما كان يجاري به ابن الخطيب الظروف العامة والخاصة ، التى كانت تفرض عليه فى بعض الأحيان . أن ينظم من القصائد والمقطعات المتعلقة بالأعياد والمواسم الدينية والمناسبات الظرفية الخاصة ، ما هو شهير فى تراثه الشعرى مثل القصيدة التى نجدها فى ديوان :

– الصيب . والجهام . والماضى . والكهام

والتى قدم لها بقوله :

« ... وقلت وقد تشيع السلطان رحمة الله عليه للصوفية والفقراء ، وأحضرهم مجالسه وأظهر الميل اليهم ، وأمر بالنظم فى طريقتهم ...» ويعنى بالسلطان أبا الحجاج يوسف ، والد محمد الغنى بالله . والقصيدة جيمية رنانة . تبلغ أبياتها اثنين وأربعين بيتا ، بها لمحات صوفية مثل :

من خمرة السر المقدسة التى كلفت بطاستها يد الحلاج
وأرت له الأشياء شيئا واحدا فغدا يخاطب نفسه ويناجى
ورأى ابن أدهم لمحة من نورها تلتاح بين مخارم وفجاج
فغدا من صوف الصفاء شعاره واعتاضه من لبسة الديباج

ومثل :

وأتيت رب الدير فى محرابه فبثثت افلاسى اليه وحاج
ناديته مترحما والليل قد رجعت كتائبه على الأدراج
مالى سوك فلا تخيب مقصدى ما خاب فيك رجاء عبد راج

هذه اللمحات جاء بها ابن الخطيب محاكاة ، ومجاراة لا شعار أهل التصوف ، لا سيما وقد نظم هذه القصيدة كما قال فى مقدمتها :

– بأمر من السلطان يوسف ابن الأحمر . لكونه فى ظرف من ظروفه الخاصة تشيع لأهل التصوف . أصحاب زوايا غرناطة وغيرها من المدن الأندلسية ، التى كانت لا تزال تحت نفوذ دولة بنى الأحمر . ولكل زاوية شيخ وأتباع .

انما نعنى فى وقفتنا هذه ما تقمصه ابن الخطيب من ادراك وجدانى كرد فعل لتفاهة ما رأى وما سمع ، وما خاض فيه ، وما أمر به ، وما نهى عنه ، وما جمعه من مال ، وما ملكه من أملاك ، وما أنجبه من ذرية ، وما قام به من أعمال

لصالح مخدوميه ، وما نالــه من حسد ، وكيد ووقيعة ودسائس ، كــان بعضها من عمل أنــاس يقول : انــه برهم وأحسن اليهم . وقربهم من رجال السلطــة والنفوذ ، ولكنهم قلبوا له ظهر المجن .

فتصوف ابن الخطيب هو نتيجة عمليات مركبة ، من تقدم فى الوعى ، وسعة فى التجربة ، وظهور بعض الحقائق التى كان يكتمها ، وبعض الثغرات التى كان يستهين بها . كما أن ظروف عيشه فى بلاط بنى الأحمر ، والأحقاد التى تراكمت حوله ، والانهيــار السياسى الذى بدأ يطــل برأسه على عرش غرنــاطة ، وفجر النكبات ، وأظهر العورات ، وأعيى الحيلة والذكاء ؛ كل ذلك جعل ابن الخطيب وكأنه يدور فى دوامة من الحيرة والقلق والندم والاحباط . والخوف .

– ولعل الانقلاب الغرناطى الذى تم (٧٦٠ – ٧٦٣ هـ) والذى فقــد فيه ابن الخطيب أشياء كثيرة : مادية ومعنوية والذى ألجأه مع مخدومه : محمد الغنى بالله الى الاقامة بالمغرب – هو بداية شعور ابن الخطيب بأن الواجب يقتضى عليه أن يغير مجرى حياته ، اما بالاقامة بالمغرب واما بقصد الديار المقدسة . وهذا واضح فى كثير من كتاباته ، التى خلد فيها مشاعره وخطراته ومشاهداته ، ولا سيما وقد قــام برحلات فى طول البــلاد وعرضها ، وسكن مدينــة سلا ، وعرف العلماء وعاش مع الزهاد ، وخلا بنفسه : مقبلا على التأمل . والعبادة . ومحاسبة النفس وتأليف الكتب مع شعور بالوحشة والغربة والاسى كمــا نحس من شعره ونــثره .

ولكن المخاض السياسى والرواجف . والروادف التى كانت كل من غرناطة وفاس مسرحا لها . ما كانت لتترك مشاعر ابن الخطيب لتستقر ، وآماله لتتحقق ، وانفصالــه عن السياسة ليتم ، واقبــاله على محاسبة النفس ليستمر ، بل انه يرجع – بين اكراه واختيار – الى منصبه فى وزارة الغنى بالله ، ويستأنف تحمل أعباء المسؤوليات ، ومجابهة الكائدين ، مع اجابة رغبات النفس فى اقتطاف بعض زهرات اللذات ، والتمتع بخيرات الحياة .

ويقول مؤرخو حياة ابن الخطيب ان هذه الحقبة من حياته كانت حافلة صاخبة تمكن فيها من امــلاء ارادته ، وتحقيق أغراضه ، والانفراد برأيه الشىء الــذى حرك السعايات والدسائس لتجد طريقهــا الى آذان الغنى بالله ، فأصبح يشك فى اخلاصه ، ويصغى لقول عداته ، ويظن به الظنون . وعلى العادة المألوفة فى باب الحقد والعداوة ، فان خصوم ابن الخطيب فى غرناطة . تصيدوا الهفوات والزلات. وألبسوا حسناته لبــاس السيئات . وتنــاولوا : أمانته وادارته وعقيدته ، وما خطته أقلامه من شعر ونثر .

وابن الخطيب واع بما يدور حوله اذ ذاك عاودته مشاعره فى الانقطاع عن العمل ، والفرار من جحيم : الشهرة والجاه والثروة والمنصب . وتراءت له فى مكتبته الحافلة مجموعة كبرى من كتب التصوف ، فأقبل عليها فرارا من واقعه ومتاعبه ...!

ويحق لنا بعد هذه التصورات أن نطمئن الى أن اقبال ابن الخطيب على كتابة صوفية ومطالعة صوفية ، كان فى غرناطة فى آخر أيام وزارته الثانية :

- **فهناك ظروف ... !**
- **وهناك استعداد ... !**
- **وهناك اقتناع ... !**

ونتيجة لذلك يستعمل ابن الخطيب ذكاءه وأسلوبه وثقافته واطلاعه ، ليؤلف كتابه الفريد فى بابه : **روضة التعريف بالحب الشريف**

ومن ذكاء ابن الخطيب أنه جعل الحب الشريف عنوانا لكتابه ، وجعل داخل الكتاب عبارة عن دوحة باسقة لها فروع وأغصان وأوراق ، وما الى ذلك وجعل مقاصده ثمارا يقطفها ، وفيها كل المعانى النبيلة التى أجهد أعلام التصوف أنفسهم لابرازها وكأنها الظل الظليل الذى يأوى اليه المظلوم والمحسود : والضعيف ، والآثم والحيران .

وعبقرية ابن الخطيب تتجلى فى كتابه هذا : فى استيعاب أعلام التصوف ، ومدارسه من أفلاطون الى الحلاج الى الشاذلى ، وغيرهم .

ولا ينسى ابن الخطيب أن يحشر نفسه . وشعره وآلامه وأشواقه فى هذا المعرض الصوفى ، الذى تلونت فيه المقاصد والأساليب ، وكلها من الحب واليه **فيقول :**

وركائب جعلوا الدليل امامهم ... وسروا ففازوا بالذى قد أملوا
والليل متلفة ومدرجة الهوى ... لا يستقل بها المطى الذلل
والواصلون هم القليل وكيف لا ... قفرة ومسبعة وليل أليل
يا رحمة للعاشقين تقحموا ... خطر السرى وعلى الشدائد عولوا
طارت بهم أشواقهم فعقلوهم ... معقولة . عن شأنها لا تعقل
عذرا لكم يا أهل عذرة شأنكم ... سلمت فيه لكم فقولوا . وافعلو

ومؤرخو ابن الخطيب يذكرون أنه ألف هذا الكتاب استجابة لاقتراح الغنى بالله لما اطلع على كتاب «ديوان الصبابة» الذى ألفه ابن أبى حجلة سنة ٧٧٦ هـ

١٣٧٥ م فى موضـوع الحب والعشق ومـا خاض فيه الشعـراء العشـاق من وجدانيات ، صنفها المؤلف ، وعلق على بعضها تعليقات ذكية . مثيرة والى جانب روضة التعريف نجد ابن الخطيب يذكر فى الترجمة التى كتبهـا لنفسه وأودعها آخر كتابه «الاحاطة» هذه العبارات المعبرة عن مشاغله :

« ... الى ما صدر منى فى هذا العهد القريب . وهى : (الغيرة على أهل الحيرة) و (حمل الجمهور على السنن المشهورة) ، و (الزبدة الممخوضة) و (الرميمة) ... (كذا) و (الرد على أهل الاباحة) ، و (سد الذريعة فى تفضيل الشريعة) و (تقرير الشبه وتحرير المشبه) و (استنزال اللطف الموجود فى أسر الوجود ... ! »

وهذه بطبيعة الحـال أسماء رسائل ألفهـا ابن الخطيب فى عهد قريب . ومن أسمائهـا نستشف أن ابن الخطيب شغل نفسه أواخر أيـام وزارته الثـانية فى غرناطة بهذه الموضوعات المتكاملة . التى لها اتجاه صوفى أو قريب منه ، يلجـأ اليه من جحيم الآلام والأحزاب ، والمكايد التى أحاطت به ، تنغص عيشه .

بعد هذا ينبغى أن نفرق فى منهاج دراسة «تصوف» ابن الخطيب بين ظاهرتين اثنتين تتجليـان فى شعره ونثره ، والمجـاراة والمحاكاة للتيـار الصوفى بسائر نزعاته السائدة فى عصره ، وقبل عصره .

— وظاهرة النقد الذاتى الذى انطلق منه ابن الخطيب فى نهـاية المطاف الى الاقتناع باتخاذ التصوف ظلا ظليلا يأوى اليه تفكيرا وتأليفا وسلوكا ، ومحاولة يبتعد بها عن شبح الأهوال ، التى كانت تنتظره .

عبد القادر زمامة

المصـادر :

اعتمدنا على كتب ابن الخطيب الآتية :

- الاحاطة . القاهرة ١٩٧٧
- روضة التعريف . بيروت ١٩٧٠
- الصيب والجهام . الجزائر ١٩٧٣
- أعمال الأعلام . بيروت ١٩٥٦

وعلى دراسة :

١ – الأستاذ المرحوم محمد التطوانى . «ابن الخطيب من خلال كتبه» تطوان ١٩٥٤

٢ – الأستاذ المرحوم عبد الله عنـان . «لسان الدين ابن الخطيب حيـاته وتراثـه الفكرى» القـاهرة ١٩٦٨ .

وكتاب «ديوان الصبابة» لأحمد بن يحيى ابن أبى حجلة . بيروت ١٩٨٤ .

أبـو بـكـر ابن الصيـرفى
الشاعــر المــؤرخ

عصر أبى بكر ابن الصيرفى

عاش أبو بكر ابن الصيرفى فى حقبة مليئة بالأحداث ، حينما كان المرابطون (١) يحكمون المغرب والاندلس خلال المـدة (٤٤٥ – ٥٤٢ هـ / ١٠٥٣ – ١١٤٧ م) ، وقد بلغ سلطانهم ، شمال افريقيا والاندلس ، كما واصلوا سعيهم فى نشر الدين وتعاليمه فى الجنوب الغربى وفى السودان (٢) .

لقد بسطت دولة المرابطين نفوذها ، وصار لها كيـان سياسى ودينى معروف بعد توحيدها لمنطقة المغرب العربى ولا سيمـا مشاركتهم الاندلسيين فى محـاربة الاسبان أولا ، ثم انفردت وحدها فى المهمة عندما أصبحت الاندلس ولاية تابعة لها ، ولذلك عدت هذه الحقبة الزمنية قمة الازدهار الحضارى بعد عهود انقسام وضعف خلال عصر الطوائف (٣) . لذلك حاول المرابطون العمل من أجل اعادة وحدة العالم الاسلامى من خلال الوصول الى كيان اسلامى قوى موحد لا سيما ان أخطار الصليبيين بدأت تهدد المسلمين شرقا وغربا مما ولد قلقا مشروعا لدى المرابطين .

بيد أن انشغالهم فى تثبيت سلطانهم فى الاندلس وافريقيا حال دون ذلك .

وفى تلك الحقبة المتميزة عـاش أبو بكر بن الصيرفى ، مستلهما – من تطور

---

(١) لهذه التسمية أراء مختلفة منهـا : ملازمتهم الثغور لدفـع الاعداء أخذا من قوله تعـالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وقيل سموا بالمرابطين لملازمتهم رابطة الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى .

ينظر : الحلـل الموشية لمـؤلف مجهول ص ١٠ ، والانـيس المطرب لابن أبى زرع ، ص ٧٦ ، والترجمان المعرب لابى القاسم الزيانى ، الفصل الخاص بالمرابطين . رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة من كلستان محمد سعيد ، جامعة غرناطة ١٩٨٥ ، ودول الطوائف لعبد الله عنـان ٢٨٩ ، وقيام دولـة المرابطين لحسن محمود ١٠٧ ، والشعر فى عهـد المرابطين والموحدين ، محمد مجيد السعيد ص ١١ .

(٢) ينظر : تاريخ الاسلام ، حسن ابراهيم حسن ، ٤/٢٨٣

(٣) ينظر : تاريخ الأدب الاندلسى : عصر الطوائف والمرابطين ، احسان عباس ، ٢٩

الأحداث وتفاعلاتها ، وانعكاساتها على الوضع الفكرى والعلمى لبيئته مسترفدا كل العناصر الأدبية والشعرية – ، مخيلته الأدبية والتاريخية .

ويرى بعض الباحثين المحدثين (٤) أن الحركة الادبية لم يكتب لها النمو والازدهار آنذاك ، لأن عهد المرابطين عهد تراجعت فيه مكانة الشعراء ومنزلتهم – على حد زعمهم – ، وكسدت بضاعة الشعر ، وخلت الساحة لرجال السيف والشريعة . ويستشهد هؤلاء بما قاله بعض الشعراء كالاعمى التطيلى (٥) :

يادولة الضيم أجملى أو تجاملى فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
وياقام زيد أعرضى أو تعارضى فقد حال من دون المنى قال مالك

ونحن نتفق مع رؤية هؤلاء الباحثين فى مدة حكم الأمير يوسف بن تاشفين (٤٥٣ – ٥٠٠ هـ / ١٠٦١ – ١١٠٦ م) ، حيث انشغل المرابطون بأمور الجهاد دون الشعر والشعراء ، الا أن عهد ابنه الأمير على بن يوسف امتاز بتشجيع الشعراء والأدباء ، وأصبحت مجالس المرابطين تغص بهم مما جعل بعض الأمراء يقلدون ملوك الطوائف فى عهودهم الزاهرة ، فاتخذوا من الشعراء والأدباء ندماء لهم ، وركنوا لحياة الدعة والترف . واستقدمت طائفة منهم الى مراكش ، وأتخذ منهم كتابا أو وزراء . وقد أشار ابن الأبار الى ازدهار الحركة الفكرية فى عهد الامير على بن يوسف حيث كان له أطيب الأثر فى ازدهار الثقافة آنذاك (٦) .

وازدهر أيضا فن التوشيح (٧) ، وظهر وشاحون كبار أمثال شاعرنا أبو بكر ابن الصيرفى ، والأعمى التطيلى ، وابن باجه (٨) ، وابن اللبانة (٩) وغيرهم .

---

(٤) ينظر : دولة المرابطين فى عهد على بن يوسف ، سلامة محمد الهرفى ، ص ٣٢٨

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة المعروف بالأعمى التطيلى : اديب ومن الشعراء المجيدين ، توفى سنة ٥٢٥ هـ .
ينظر : المغرب لابن سعيد ٢/٤١٥ ، وقلائد العقيان لابن خاقان ٢٧٣

(٦) ينظر : قيام دولة المرابطين ، حسن محمود ٤٤٤

(٧) وفن التوشيح : مظهر من مظاهر الترف الفنى ، وهو حركة تطور وتجديد وعودة الى الغنائية ، ظهر فى الاندلس فى القرن التاسع الميلادى .

(٨) هو أبو بكر محمد بن الحسين بن باجة الاندلسى : فيلسوف الاندلس ومن شعرائها الفحول ، توفى سنة ٥٣٣ هـ .
ينظر : وفيات الاعيان ٤/٤٢٩ ، والمغرب ٢/١١٩

(٩) هو أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة : من شعراء الاندلس وأدبائها المشهورين ، توفى سنة ٥٠٧ هـ .
ينظر : قلائد العقيان ٢٤٥ ، والمغرب ٢/٤٠٩

واذا كان اختفاء شعر الخمريات والغزل هو المقياس فى الحكم على تقدم الأدب أو انحطاطه فأن مثل هذا اللون من الادب قد اختفى فى عهد المرابطين لأن دولتهم أكدت على تعـاليم الاسلام النقيـة وابتعدت عن بعض ألـوان الأدب كالغـزل والخمريات المفرطة فى الحسية ممـا صير الشاعر فى اطـار أخلاقى ساعد على بروز أدب يمتاز بصدق العاطفة وقلة المبالغة .

فالأدب فى هذه الحقبة صورة متميزة لتلك الاغراض .

ومن جهة أخرى ، فان الأحداث المتتالية والنكبات التى ألمت بالعالم الاسلامى فى تلك الحقبـة مثل سقوط الخلافـة فى الاندلس ، وسقوط بيت المقدس فى أيـدى الصليبيـين ، كانت مآس طبعت بصماتها على حيـاة المسلمين ، وكان الشعراء والأدباء فى مقدمة من نظموا وكتبوا هذه الأحداث وصوروها وخلدوها شعرا ونثرا يعكس صور الجراحات العميقة والأحاسيس الصادقة المتمثلة بأدب تلك الفترة وتراثها .

أصل ابن الصيرفى ونشأته

يكاد يجمع المؤرخون على أن ابن الصيرفى هو يحيى بن محمد بن يوسف (١٠)، الا أن ابن عذارى جعله يحيى بن يوسف دون ذكر «محمد» ، وقد انفرد بذكر لقبه فقال : انه الأنصارى (١١) ، على حين ورد فى كتاب نفح الطيب اشارة الى لقب أبى بكر فقـال المقرى : انه ابن الصيرفى الغرناطى (١٢) ، ولقبـه آخر بالأنصارى الغرناطى (١٣) .

أما كنيته فهى أبو بكر ، وقد أجمع عليها كل من ذكرها .

أما لقب الصيرفى فلابد أنه جاء من تصريف الدنانير ، وقد أشار ابن خلكان الى ذلك بقوله : والصيرفى هذه النسبة مشهورة لمن يصرف الدنانير والدراهم (١٤) .

وجدير بالاشارة الى أن هذه النسبة تدل على وجود المصارف فى ذلك الحين ، وقد أشار السيوطى الى لقب الأنصارى ابن الصيرفى فيعنى ذلك أن أباه أو جده كانا يعملان فى الصيرفة .

---

(١٠) ينظر : الصلـة لابن بشكوال ، القسم الأخير ١٨٣ ، وبغية الوعـاة للسيوطى ٣٤٣/٢ ، وتاريخ الفكر الاندلسى لانخل بالنثيا ٢٤١
(١١) ينظر : البيان المغرب ٩١/٤
(١٢) ينظر : نفح الطيب ، ١٨١/٣
(١٣) ينظر : تاريخ الفكر الاندلسى ٢٤١
(١٤) ينظر : وفيات الاعيان ١٩٩/٤

وأن نسبته الى غرناطة جاءت نتيجة لسكنه فى هذه المدينة ، فهو أحد أبنائها(١٥) ولد أبو بكر بن الصيرفى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، فى مدينة غرناطة (١٦) وقد نشأ وترعرع فيها .

لقد أتيح لأبى بكر بن الصيرفى أن يتتلمذ لنخبة من علماء عصره الأجلاء ، ذكر ذلك السيوطى (١٧) : بأنه أخذ عن أبى بكر بن العربى ، كذلك أشار ابن بشكوال الى شيوخ ابن الصيرفى بقوله : أخذ عن أبى الحسن بن مغيث ، وأبى بكر ابن العربى ، وأبى مروان بن بونه ، وغيرهم (١٨) .

توفى ابن الصيرفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م فى مدينة أوريولة (١٩) عن تسعين سنة (٢٠) .

مؤلفات أبى بكر بن الصيرفى

لم ينقطع ابن الصيرفى الى الشعر بل كان له نشاط فى التأليف والكتابة . والظاهر من كتبه التى سنذكرها انه كان مؤرخا ، اذ انه ألف كتابا أسماه «تاريخ الاندلس» (٢١) وكتاب «أخبار لمتونة» (٢٢) الذى ذكره المقرى وأشار اليه أنخل بالنثيا ، الى جانب كتاب آخر عنوانه «أخبار الفتنة الثانية بالأندلس» (٢٣) وورد أيضا ذكر كتاب «أخبار لمتونة» ولكن بتسميتين أخريين أثبتهما البستانى (٢٤) وهما : «تاريخ الدولة اللمتونية» و «الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية» . الا أنه للاسف ، ليس بامكان الباحث – أيا كان – أن يتوثق من قيمة هذه الكتب

---

(١٥) ينظر : دائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢/٣

(١٦) فى الاسبانية Granada وتعنى الرمانة ، وهى شعارها التاريخى ، والذى ما زالل ماثلا على باب قصر الحمراء الرئيسى . كانت آخر القواعد الاندلسية الذاهبة . ولهذه المدينة منزلة خاصة فى نفوس الاسبان وفى التاريخ الاسبانى اذ يعتبر سقوطها في أيدى الاسبان سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م ، فاتحة عصر اسبانيا الذهبى .

(١٧) ينظر : بغية الوعاة ٣٤٣/٢

(١٨) ينظر : الصلة / القسم الاخير ١٨٣

(١٩) فى الاسبانية Orihuela ، كانت قاعدة لمملكة تدمير القوطية ، تقع مدينة أويولة بين مدينتى ألش ومرسية على نحو عشرين كم من شاطىء البحر الابيض المتوسط . سقطت هذه المدينة فأيدى الاسبان سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٢ م .

(٢٠) التكملة لابن الأبار ٧٢٣/٢

(٢١) ينظر : بغية الوعاة ٢/ ٣٤٣

(٢٢) ينظر : نفح الطيب ١٨١/٣

(٢٣) تاريخ الفكر الاندلسى ٢٤١

(٢٤) دائرة المعارف الاسلامية ٢٩٢/٣ ، والحلل الموشية ٩٣

العلمية أو الاسلوبية نظرا لضياعها كما صرح بذلك محقق كتاب الحلل الموشية وكذلك بالنثيا (٢٥) .

ونظرا لعدم وجود نقولات كافية عنها فى متون كتب التراث ، اذ لم نعثر الا على نص واحـد مقتبس من كتـاب «الأنوار الجلية» ذكـره صاحب كتـاب الحلـل الموشية (٢٦) ، وهو نص لا يعطينا فكرة متكـاملة عن اسلوب المؤلف والقيمة العلمية للكتاب .

ومن كتبه أيضا كتـاب «أبراز اللطائف» ولعـل موضوعه مستمد من بعض النوادر الأدبية (٢٧) .

ابن الصيرفى وتقويم النقـاد القدامى له :

حظى أبو بكر بن الصيرفى باهتمام وتقدير أدباء الاندلس ونقـاده ، مما يدل على علو منزلته ، ورفعة مكانته عندهم ، فقد أثنى عليه غير واحد منهم من ذلك — على سبيل المثال لا الحصر — ما قاله ابن الزبير فى كتابه صلة الصلة : من أن ابن الصيرفى «كان من أهل المعرفة بالعربية والآداب واللغات والتاريخ ومن الكتاب المجيدين والشعراء المكثرين» (٢٨) .

ويبدو أن هذا الرأى ظل محافظا على ما فيه من حكم على ابن الصيرفى حتى القرن العـاشر الهجرى حيث ردده السيوطى بحذافيره (٢٩) . فضلا عن هـذه الصفات التى امتاز بها أبو بكر بن الصيرفى والتى جعلته يتسنم ذرى المجد الثقافى فى عصره . ويبدو لنا من خلال النص الذى سوف نثبته بعد قليل ، والذى قاله فى حقه لسان الدين بن الخطيب ، أن لأبى بكر ابن الصيرفى باعا فى الحفاظ زيادة على ما عرف عنه من دقة فى الكتابة من حيث ايضاح المعانى وتقسيم الافكـار ، كما يبدو أن لصاحبنا معرفة فى السلوك الانسانى مما هيأ له أن يكون مستشارا للملوك يلقى عليهم من خـلال مديحه لهم ، حكمه ونصائحه وهى بشهـادة ابن الخطيب نصائح ثمينة شأنها فى ذلك شأن الدرر تمـاما ، يقول ابن الخطيب فى وصفـه : «كان آية باهرة ومعجزة ظـاهرة ، عرف احسانه وأصاب لسانه ، بهرت أقسامه فاجتليت وسطرت بدائع معانيه فتليت ، مع تحقيق الآداب ، واتساع فى اللغـات

---

(٢٥) دائرة المعارف ٢٩٢/٣
(٢٦) تاريخ الفكر الاندلسى ٢٤٢
(٢٧) معجم المؤلفين ٢٣٠/١٣
(٢٨) نقلا عن بغية الوعاة ٣٤٣/٢
(٢٩) ينظر : المصدر نفسه ٣٤٣/٢

وحفظ الشعر والانساب ، مدح الدول والملوك ، ونظم على أجيادهم تلك الدرر فى السلوك» (٣٠) .

ولا ريب فى أن كثرة حفظه قد شذبت مخيلته الشعرية وأضفت عليها نصيبا غير قليل من الابداع والخلق ، ويكاد مؤرخو الأدب يجمعون على رقة شعره كما أفادنا بذلك ابن الآبار (٣١) ، اذ أنه ما من أحد يتلو موشحاته الا ويخرج بشعور أو قل بحكم مفاده : ان شعر بن الصيرفى يعبر عن حس رقيق يصدر — ولا ريب — عن انسان رقيق .

لقد تهيأ اذن لابى بكر بن الصيرفى ما لم يتهيأ لغيره من الكتاب والشعراء من الصفات ما جعله يتبوأ مركزا مرموقا فى مجمع العلماء وفى الدولة على حد سواء ، فلا عجب فى أن يتصل بالامير المرابطى تاشفين أبى حامد وأن يعينه هذا الأخير كاتبا له ، وأن يتولى أعمال المرابطين جميعا (٣٢) .

وهكذا نستطيع أن نقول : أن أبا بكر بن الصيرفى كان موسوعة عصره — ان صح التعبير — فهو مؤرخ ، وعارف باللغات ، وشاعر مجيد ذو حظوة لدى أمراء المرابطين قلما حظى بها عالم أو مؤرخ أو شاعر .

شعره وموشحاته :

أجمعت المصادر التى ترجمت حياة أبى بكر بن الصيرفى على أنه شاعر مجيد ، وكان كثير الشعر .

يظهر أن ميل ابن الصيرفى الى الشعر لم يكن بأقل منه الى النثر ، بل لعل اهتمامه به أكثر ، وهو به أعرف وأشهر ، ومن أجل هذا فقد وصل الينا من شعره أكثر مما وصل الينا من نثره ، وقد حفلت ترجماته بشعره أكثر مما حفلت بنثره ، بل أجمعت المصادر التى ترجمت له على أنه كان شاعرا مجيدا ، كثير الشعر (٣٣) بيد أنه لم يبق لنا من هذا الكثير الا القليل .

ففى قصيدة له أنشدها حينما استقر الامير تاشفين فى قرطبة وهى قصيدة تتألف من عشرين بيتا ، لم يذكر ابن عذارى منها الا صدر البيت الآول وفيه تحريف ، الا أن ابن خلدون ذكرها كاملة وصحح مطلعها فكان :

---

(٣٠) جيش التوشيح لابن الخطيب ١٢
(٣١) ينظر : التكملة ٧٢٣/٢
(٣٢) ينظر : تاريخ الفكر الاندلسى ٢٤١
(٣٣) ينظر : بغية الوعاة ٣٤٣/٢ ، والتكملة ٧٢٣/٢ ، والمغرب لابن سعيد الاندلسى ٤٠٩/٢

يـا أيهـا المـلأ الذى يتقنـع   من منكم الملك الهمام الأروع(٣٤)

يعرج الشاعر بعد هذا المطلع الى وصف ثبات الامير تاشفين فى أوان لم يثبت معه أصحابه لأنهم فوجئوا ليلا بغدر الأعداء ولذلك تولوا عنه حينما اشتد الطعان وان كان الوفـاء قد أعادهم اليه كرة أخرى ، فقـاتلوا واستبسلوا حتى أصبح الليل كأنه فجر لما يلمع من بيض السيوف فوق هامات الجند . ثم يصور منزلة الأمير فى قومـه ، فيشبهه بـانسان العين أو القلب ، غير أنهم لـم يحصنوا أو يحفظوا هـذا الانسان من قذى الأعداء ، ولـم يدافعوا عن هذ القلب بصدورهم وانما أسلموه وتركوه فريدا وحيـدا فى ساحة الوغى . وأنه لقادر على معـاقبة هؤلاء القوم ولكنه وهو الكريم أولى بأن يعذرهم لأن الليل قد أسدل ستاره فاغتنم الأعداء هذه الفرصة السانحة يقول :

ومن الـذى غـدر العدو بـه دجى   فـانفـض كـل وهـو لا يتـزعـزع
تمضى الفوارس والطعـان يصدها   عنـه ويـدحرهـا الوفـاء فترجـع
والليـل مـن وضـع التـرائك أنـه   صبـح عـلى هـام الجيـوش يلمـع
أنـى نـزعتـم يـابـنى صنـاجـة   واليكـم فى الـروع كـان المـفـزع
انسـان عيـن لـم تصبـه مـنكـم   حصن وقـلب أسلـمتـه الأضـلـع
وصـددتـم عـن تـاشفيـن وانـه   لعقـابـه لـو شاء فيكـم مـوضـع
مـا أنـتـم الا أسـود خـفـيـة   كـل لـكـل كـريـهـة مستـطلـع
يـا تـاشفين أقـم لجيشـك عـذره   بـالليـل والعـذر الـذى لا يدفـع

ثم يمضى الشاعر فى قصيدته مذكرا أمير المؤمنين تاشفين بما كان يتمتع به بعض من سبقوه فى أدب السياسة ، اذ كان ملوكهم يلبسون من الدروع المحكمة الصنع ما يحميهم ويقيهم من كيد الأعداء ناصحا اياه باتخاذ السيف الرقيق الذى لا يعيقه سواء فى حالة اندفاعه وراء الاعداء أم فى حالة انساحبه عنهم ، موصيا اياه باتخاذ الخيل السريعة الجريان قائلا له : فلتكن هذه عدتك فى أيام الشدة ، فهى أنفع لك من حد السيف ، واقطع منه فى رقاب الأعداء :

لأنـنـى أدرى بهـا لـكـنـهـا   ذكـرى تحض المـؤمنين وتنفـع
والبس من الحلق المضاعفة التى   وصى بهـا صنع الصنائع تبـع
والهنـد وأنـى الـرقيق فـانـه   سيـان تتـبع ظـافرا أو تتـبع
واركب الخيـل السوابـق عـدة   أمضى على حـد الدلاص واقطع

---

(٣٤) ينظر : البيان المغرب ٤/٩٥ ، والمقدمة ١/٤٨٨

أمـا فى القسم الثـالث والأخير من القصيدة ، فنرى الشاعر يكيـل للأمير النصائح التعبوية ومنهـا : أن يضرب على نفسه خندقا فى حالـة الهجوم يكون بمثابة الحصن الحصين له من كيد الاعداء ، مشيرا عليه أن لا يقطـع الوادى الذى بينه وبين أعدائـه لأنه سيكـون والحالة هذه عائقـا طبيعيا أمامهم لا يستطيعون أن يجتـازوه بسهولة ، كمـا ينصحه فى أنه يحصر نطـاق الحرب فى دائرة ضيقة ، وأن يكون صبورا فى بداية الأمر لأنه انما يجزع الضعيف المخذول من مواجهة الحرب لا القوى الحازم .

وأخيرا يـذكر الامير بأنه لابـد من أن يجعل طلائعــه من ذوى الشهـامة والشجاعة والنجدة لأنه لا فـائدة فى من يرجع اليه منهم ، فيهول عليـه الأمر ويفت فى عضده وسواعد جنده يقول :

خنـدق عليـك اذا ضربـت محلـة	حصنـا حصينـا ليس فيـه مدفـع
والـواد لا تعبـره وانـزل عـنـده	بيـن العـدو وبـين جيشـك يقطـع
واجعـل منـاجزة الجيوش بمعـرك	ضنـك فـاطـراف الرمـاح تـوسع
واصـبـر لأول مـرة لا تـكـتـرث	شيئـا فاظهـار النكـول يضعضـع
واجعـل من الطـلاع أهـل شهـامة	للصـدق فيهـم شيعـة لا تـخـدع
لا تسمح الكـذاب جـاءك مـرجعـا	لا رأي للـكـذاب فـيمـا يـصنـع

والقصيدة من بحر الكـامل ، وهو بحر مناسب للمديح الا أنه غير ملائم كما نرى لوصف المعارك والمواقع الحربية وان كان الشاعر قد وفق فى اختيـار قافية العين خير توفيق ، الا أن الصفة الغالبة عليها كانت هى الصفة التقريرية ، حتى بدت القصيدة وكـأنها شعر تعليمى جـاء ليقرر بعض النصائـح والارشادات الحربية ، فكانت من جراء ذلك خالية من الخيـال الذى نراه عند كبـار وصاف المعارك الحربية كالمتنبى على سبيل المثال .

أما مديحه للأمير تاشفين فلم يخرج عن ترديد بعض الصفـات التى رددها الشعراء من قبل ، كالثبات والشجاعة والعفو عند المقدرة .

والقصيدة بعد كل هذا وذاك خالية من الصور البلاغية الرائعة والتشبيهات التى تأخذ الباب السامعين .

وله قصيدة أخرى التى جاءت على بحر البسيط فهى لا تعدو أن تكون تهنئة من الشاعر لأميره فى عيد الفطر ، وهى تتألف من سبعة أبيات ابتدأها الشاعر بغزل رقيق يصف فيه مسرى الحبيبة فى الظلماء أوان الغسق ، فيشبهها كشجرة البـان التى تضوع بالعبق كلما مر الصباح عليها بنسائمه العذبة يقول :

عرفت والليل مزور على الأفق خفى مسراك فى الظلماء والغسق(٣٥)
يا بانة كلما افتر الصباح لنا ألقى النسيم عليها نفس معتبق

أما مديحه للأمير تاشفين فقد ظهر فيه من المبالغة الشىء الكبير ، فالأمير فى نظره أكرم الناس ، متكامل فى خلقه بل أنه ليعلو بملكه على هامات بقية الملك ، وهذا بطبيعة الحال لا يخرج عن نطاق ما ردده المداحون من الشعراء من قبل ، وهو وصف مبالغ فيه يقول :

يا أكرم الناس عفوا عند مقدرة وأجمل الناس فى خلق وفى خلق
لا زال ملكك يعلو كعبه أبدا هام الملوك كما تعلو على السوق

وليس فى هذه القصدة شىء من البديع يستحق الذكر ، أو من الصور البيانية البديعة اللهم الا ما ذكرناه عن البيتين اللذين افتتح بهما الشاعر قصيدته متغزلا اذ جعل من الرقة ومن الصور ما لم نره فى بقية القصيدة كالمطابقة بين الظلماء والغسق ، والاستعارة فى قوله : افتر الصباح ، وتشبيه الحبيبة فى قوامها بشجرة البان التى تتمايل حينما تمر عليها نسيمات الفجر .

أما موشحاته فقد رأينا أن نحلل موشحتين منها لتكونا مقياسا لمستوى بقية موشحاته التى نتمنى أن تكشف عنها الأيام لأننا نعتقد أن أغلب موشحات أبى بكر بن الصيرفى قد طوتها يد الزمن .

وقد تبدأ الموشحة عند أبى بكر بن الصيرفى بما يسمى عند البلاغيين بـ «تجاهل العارف» وهو أسلوب غالبا ما يتبع فى مطالع القصائد لا سيما عند شعراء العصور المتأخرة فهو يتساءل دون أن يطلب اجابة ما ، عما اذا كان قد وقع بصره على شفاه حمراء أم على عقيق ينطبق على أسنان كاللؤلؤ المنضود ، وعما اذا كان قد شاهد بأم عينيه خدودا بلون الدم أم ورودا كشقائق النعمان ، مشرقة اشراق البدور ،

أثغور أم عقيق بلآل تحدق وخدود أم جنى الورد) ما يشرق (٣٦)

واذا كانت العادة قد جرت كما أسلفنا على استعمال «تجاهل العارف» فى المقدمة ، فأن الشاعر ما أن يتقدم فى موشحته خطوة حتى نراه يغرق فى الصنعة منذ البيت الاول : فقد جعل على سبيل المثال الاستعارة — للهوى أيادى ، ثم

---

(٣٥) راجع القصيدة فى البيان المغرب ٤/٩٥
(٣٦) راجع الموشحة فى جيش التوشيح ص ١٢١ — ١٢٢

استلف للسقم ثيابا ، وجعل الهوى متحركا اذ أعطاه الرخصة فى أن يلبسه هذه الثياب ، ثم لم يكتف بذلك حتى عقد بين القلب والجسم محاورة ، فاذا بـالقلب يشتكى من حرما يلاقيه الشاعر من ألم الجوى الى جسمه المنهك ، فاذا ما خلص الشاعر من تحديد مكان الالم ومحط العلة ، فانه ينتقل بعد ذلك الى تحديد الزمان والظروف المحيطة به ، ولذلك يصرح بأن كل هذا حدث فى جنح ليـل داج لا نجم فيه ، ولا علامات مما يدلـل على أن حيرة الشاعر أعمق من أن تحدهـا حدود ؛ فضلا عمـا رافقه من برق يخفق فى الآفاق كخفقـان قلب الشاعر ، ورعد يزمجر بالسنته اللاهبة غير الناطقة مثل لهيب الجوى فى جوفه .

البستنى حلة السقم أيدى الهوى
وشكا قلبى الى جسمى حر الجوى
تحت ليل غائر النجم وحف الصوى

أعربت فيه البروق عن فؤاد يخفق بجوى من السن الرعد كما تنطق

ثم يبدأ الشاعر بوصف وجه حبيبه . معتمدا على عنصر التشبيه فهو كالبدر لمعانا وكشمس الضحى بريقا ، وهو بعيد كبعد هذين الشيئين دلالة على أنه لا ينال بيسر وبسهولة ، فهو اذن جامع للامرين معا ؛ العلو والوضوح ، فضلا عن ثنايا أسنانه المفلجة التى تشع بالحلاوة ، وبـالعطر فى آن واحد ، انها رحيق ، ومـاء زلال ، فاذا ما تكلم صاحبها ، وألقى التحية ، ولو كان على مسافة بعيدة ، فـاح عطر أسنانه ، فاستنشقته الأنوف ، واستطابته :

بأبى بدر ولا الآ شمس الضحى
بدا فانجلى فما أعلى وأوضحا
وثنايا فيه ما أحلى وأفوحا

مزجت فيه الرحيق بنمير يعبق فاذا حيا على البعد ستنشق

ازاء وجه كهذا ، لحبيب كهذا الحبيب يرى الشاعر نفسه مغلوبا على أمره ، لا يطيق الصبر ، ولا الصبر يطيقه ، ثم تشتد حيرته فلا يعرف نفسه ، لأن الحبيب لم يوله احسانا بل كان على الدوام بعيدا عنه هاجرا اياه ، ثم يعود الى التساؤل والحيرة فى وصف معالم حبيبه هل هو بشر أم بـاقة ورد ملونة ، تنتقل من مكان لآخر ، فهى تجمع الياسمين «العيون» والشقيق «الشفاه» والجلنار «الخدود» فوق قد كأنه غصن من جنة الخلد ، عال لشموخه بحمل هذه المفاتن :

أنا مغلوب على صبرى فما أنا
وحبيبى دائم الهجر لم يحسنا
جملة من يانع الزهر لو تجتنى

ياسمين فى شقيق جلنار مشرق غصن من جنة الخلد مستشرق

لقد بدا قوام الحبيب كقضيب الخيزران ، أو كقضيب البان فى حين راح الشاعر يبكى عليه ، لأنه لم يغز به ، حتى غدت دموعه كالظل الذى يتساقط على أغصان الأشجار اليانعة ، أما لحاظ الحبيب فان لها من التأثير الكبير فى الشاعر ما يشق على القلم وصفه ، فانها حققت ما تدعيه من مآرب اذ أصابت القلب ، بل أنها انتزعت الضلوع على صلابتها من أماكنها ، فاذا الشاعر مشفق على عينيه التى رأت ، ونفسه التى طمحت وفؤاده الذى وقع فى بحر الغرام دون أن يعرف العوم ، عيناه غارتا بكاء ونفسه انكسرت مهمومة وفؤاده يتلظى محترقا :

يا قضيبا فوقه طل من أدمعى
أخذت الحاظك النجل ما تدعى
فلها قلبى وما تخلو من أضلعى

ما جنت عينى تذوق غير أنى مشفق لفؤادى من لظى الوجود ما يحرق

أما البيت الاخير من الموشحة فهو عبارة عن موزانة بين قوة الحبيب وجوره وبطشه وبين ضعف العاشق وانهياره وحرمانه ، فالحبيب كالأسد المفترس يأخذ عن قدرة ، ويفترس عن طاقة ، ويستعبد ولا يستعبد ، وهو دائب على الافتراس ، وصيد القلوب ، مع أنه غزال شارد ، أرهق كلاب الصيد ، التى أرادت أن تصل اليه ولكن دون جدوى :

رشا من ضاربى زيد مستأسد
أخذ ما شاء عن أيدى مستبعد
أبدأ يهيم بالصيد فيبعد

الغزال شق الحريق والسلاق ترهق ما نرى الآن مرادى لم يلحق

أما حين يمازج شرب الخمرة وصال الحبيب فأن الشاعر يحس بافضل حالاته على الاطلاق ، فالسعادة المتحققة عنده لا تطاولها سعادة والحبور الذى ينعم فى ظلاله لا يصل اليه حبور ، فالعيش الرغيد ليس سوى لثم خده ، والسرور المقيم ليس الا شرب خمرة من بين يديه :

أسقنيها على رياض (وجنات من الملاح
انما العيش والسرور) لثم خذ وشرب راح (٣٧)

---

(٣٧) راجع جيش التوشيح ص ١٢٨ — ١٢٩

واذ يصف الشاعر كأس خمرته التى تطرد الهموم عن فؤاده المعنى ، كلما لج به داعى الهوى ، يغرق فى الصنعة فيصف الخمرة بالشمس ، والحبيب بالنجوم وهى تحل فى سماء زجاج الكأس ، وكأن كرم النفس وابتهاجها لا يتحصل الا من خلال معاقرة الخمرة ، ليس هناك اذن ما يعوض عن الكأس فهو الراحة الكبرى لشاربه ، وكؤوسه تنفى الهموم عن القلب فاذا هو فرح مبتهج منتش :

قهوة تنتفى الهموم كلما شجها المزاج
كلل الشمس بالنجوم فى سماء من الزجاج
أسقنى بابنة الكروم كرم النفس بابتهاج

ليس من شربها اعتياض (ومن الهم يستراح
ذي كؤوس بها تدور) فى غبوق أو اصطباح

لم يصف الشاعر حبيبه معرجا على حمرة خدوده التى تشبه حمرة شفتيه ، أما القد فهو عبارة عن غصن رطيب حمل فوقه وجها كأنه قمر فى حال تمامه أو فى زمن سعده ، أما الثغر فهو مفلج كالاسنان المعقودة فيه ، وبعد هذا وذاك تأتى المفارقات ففى حين ترى جفون الحبيب وكأنها مريضة تمرض نفس الشاعر الصحيحة ، فعلى الرغم من فتور هذه الجفون البادية الضعف ، فانها تصيب وتؤذى وتؤلم

بأبى من نجده مثل ما منه فى الفم
قمر عند سعده فى قضيب منسم
ثغره مثل عقده أي ثغر مبسم

ذي جفون له مراض (تمرض الأنفس الصحاح
وهى بالضعف والفتور) تقتل الأنفس الصحاح

بعد هذا يصل الشاعر الى مرحلة الانهيار ، حيث يرى نفسه أسير حبه ، الذى أضناه ، فيرضى بما هو مقسوم له ، على غرار ما نشاهد عند شعراء الغزل العذرى العفيف ، فهو يبكى دماً ، والحبيب يجور عليه فى أحكامه ، وهو صابر ، حتى وان أودى الهوى بحياته وكان لسان حاله ينشد قول الآخر :

ولك الامر فاقض ما أنت قاض فعلى الجمال قد ولاكا

يقول :

ياغزالا تحكما فى حياتى بباطل
أنت أبكيتنى دما حيث ما كنت واصلى
أنا أهواك كيفما كنت ، لو كنت قاتلى

فاقض فى ما أنت قاض لا تخف بى من جناح أننى للقضا صبور
والذى شئته صــلاح

ولكنه يفقد الأمل فان بريقه يظل يداعبه فلعل الحبيب يرضى ، ولعله جاهل بما يرضيه فهو يتلمس الوسيلة الى ذلك ما استطاع سبيلا بل يأمــل أن يعيد الحبيب النظر فى أمره ، لأنه رقيق وليس من طبع الرقيق أن يكون قاسيا الى هذا الحد :

كيــف لـــى يا نـــائيه منك بالوصــل ، كيف لـــى
لــم تـذر فى بــاقيــه بــالــجــفــا والــتــدلــل
أعــد لأمــر ثــانيــه فــعــســى أن يــرق لـــى

فاحمرار على بياض وقراح على أقاح مشرق زهره بنور مثلما يشرق الصباح

ثم يوازن فى نهاية الامر بين حاله وحال حبيبه معتمدا على المقابلة فى اضفاء حلة قشيبة من البلاغة على كلامه ، ففى حين يشقى هو ، ينعم الحبيب بقيادته ، وفى حين يتمنى وصاله ، وقطف الورود من خده ، ورشف الكؤوس من رحيق ثغره ، تراه يبتعــد عنه ، ويشح بما له من مفــاتن ومحاسن ، انه اذن كالفرس الجامح الذى لا يراض ، وأن ما يعد به لحظة الوسنان لا يشكل شيئا ذا بال عند الشاعر الذى لا يحصل منه على نتيجة شأنه فى ذلك شأن القابض على الرياح ، ترجع يده ، فى نهاية الامر ، خاوية ، فارغة بيضاء .

أنــا أشقــى وينــعــم ذا الــرشا القــائد المليــح
ليس يقــضى ويحكــم فى الهــوى غيــر مستريح
كيــف يرجــو المتــيم روض وصــل من الشحيح

نافر العقل لايراض محفر مكثر الجماح ان للحظ من فتور مثلما تقبض الرياح

الخــاتمة والنتــائج

طبقا لما رأينا ، فان شعر ابن الصيرفى التقليدى كما يخلو من الخيال والذاتية ، فان موشحاته تسبح فى خيال وذاتية عبر رقة وغنائية تتجلى فى رهافة الكلمة والبنية الحكائية التى تكشف فى توال عن شاعرية متميزة لوشاح أصيل .

المصادر :

- بغية الوعاة للسيوطى . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . مصر ١٩٦٥
- البيان المغرب لابن عذارى . نشر ليفى بروفنسال . باريس ١٩٣٠
- تاريخ الادب الاندلسى لاحسان عباس – عصر الطوائف والمرابطين . بيروت ١٩٦٢
- تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن . ط ٧ . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤
- تاريخ الفكر الاندلسى لانخل بالنثيا . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥
- التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار . نشر كوديرا . مدريد ١٨٨٧ – ١٨٩٠
- توشيح التوشيح للصفدى . تحقيق البير حبيب . بيروت ١٩٦٦
- جيش التوشيح لابن الخطيب . تحقيق هلال ناجى ومحمد ماضور . تونس ١٩٦٧
- الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول . طبعة تونس
- دولة المرابطين : لسلامة محمد سليمان الهرفى . دار الندوة الجديدة . بيروت ١٩٨٥
- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام . طبعة لجنة التأليف . القاهرة ١٩٣٩ – ١٩٤٥
- الشعر الاندلسى لاميليو كارثيه كوميث . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٢
- الشعر فى عهد المرابطين والموحدين بالاندلس . للدكتور محمد مجيد السعيد ، دار الرشيد للنشر . بغداد ١٩٨٠
- صلة الصلة لابن الزبير . تحقيق ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٨
- فوات الوفيات لمحمد شاكر الكتبى . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية .
- قلائد العقيان لابن خاقان . طبعة تونس ١٩٦٦
- المرابطون والموحدون وبنو الأحمر من كتاب الترجمان المعرب لابى القاسم الزيانى .

رسالة دكتوراه مقدمة من كلستان محمد سعيد . جامعة غرناطة .

- معجم المؤلفين كحالة . مطبعة الترقى . دمشق ١٩٥٧
- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد . تحقيق الدكتـور شوقى ضيف . دار المعارف بمصر .
- المقدمة لابن خلدون . ط. كاترمير . باريس ١٨٥٨
- نفح الطيب للمقرى . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القـاهرة ١٩٤٦
- وفيات الاعيان لابن خلكان . تحقيق محي الدين عبد الحميد . القـاهرة ١٩٤٨

الدكتور محسن اسماعيل محمد

ملخص مداخلات أسبوع

تكريم المستشرق العظيم : إميليو جارثيا جومث

الذكرى الأولى ٣١/٥/١٩٩٦

تفضل السيد السفير ابراهيم على حسن بافتتاح هذا الأسبوع بكلمة موجزها :

اسم مصر يحمل بعدا هاما لكل الانسانية لأن التراث المصرى هو تراث للانسانية جمعاء . هذا البعد هو الذى حرك جارثيا جومث وكان حافزا له على العمل الخلاق فى مجالات الاستعراب لأن مصر أيضا عربية . عاش جارثيا جومث يعمل من أجل وطنه ومن أجل تراثنا ، وأحب مصر وظل صديقا وفيا لها ومصر لا تنسى أصدقاءها . وقد كان جارثيا جومث يقود الاستعراب فى اسبانيا بينما يقود صديقه عبد العزيز الأهوانى فى مصر فريق الدراسات الاسبانية . وبين المجالين حقل مشترك هو الذى يوحد بين بلدينا . ان اسبانيا بعد الرجلين ، لم تعد مثل اسبانيا قبلهما ، لقد اقتربت منا واقتربنا منها حتى صارت بالنسبة للعرب « اسبانيا الشقيقة » .

فى كلمة ماريا دولوريس الجورا وبير تقدم تأريخا بالغ التشويق لدور اسبانيا فى الاقتراب الثقافى من العالم العربى وبصفة خاصة مصر ، هذا الدور الذى نهض به جارثيا جومث بناء على مبادرة منه وتكليف من وزارة الخارجية الاسبانية وذلك بعد الحصار الذى تعرض له نظام فرانكو من الغرب وقد عرضت لبدايات هذا الاقتراب الثقافى برحلة قام بها جارثيا جومث عام ١٩٤٧ الى القاهرة وعمان وبغداد ودمشق وبيروت وكيف كانت هذه الرحلة بداية لتعميق العلاقات الثقافية كخطوة نحو تعميق العلاقات السياسية . وقد أسفرت هذه الرحلة فيما بعد عن انشاء المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد وتعيين الدكتور طه حسين عضوا فى الأكاديمية الملكية للتاريخ ودعوته لزيارة اسبانيا واعلان الحكومة الاسبانية عن رغبتها فى تشييد المعهد المصرى للدرسات الاسلامية فى مدريد فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٩ وقد تحققت زيارة طه حسين الى اسبانيا وافتتاح المعهد بعد ذلك بعام بالضبط .

وتنهى هذه الباحثة دراستها الشيقة بسؤال عما اذا كان الحديث عن التقارب الثقافى بين جنوب البحر الأبيض المتوسط وشماله لتفادى تصادم الحضارات يقدم جديدا ؟ ان جارثيا جومث فى اسبانيا وطه حسين فى القاهرة صنعا هذا التقارب بأفعال وليس بأقوال واذا كان التاريخ ذاكرة للشعوب فان هذا التقديم التاريخى للتقارب الثقافى يضع قاعدة قوية لمستقبل العلاقات الثقافية .

الوى بنيتو روانو السكرتير العام للأكاديمية الملكية الاسبانية للتاريخ تحدث عن دور اميليو جارثيا جومث فى الكشف عن تاريخ اسبانيا عبر تراثها العربى وذلك خلال المؤسسات الكثيرة التى أصبح عضوا فيها أو مؤسسا لها أو شريكا فى تأسيسها كعضويته فى الأكاديمية الملكية للتاريخ وأكاديمية روما ومراكش

والدكتوراه الفخرية من عدد من الجامعات الاسبانية بجانب تأسيسه لمدرسة للدراسات العربية بمدريد على غرار مدرسة الدراسات العربية بغرناطة . وتأسيسه مع أستاذه أسين بالاثيوس مجلة الاندلس . وأستاذيته بالجامعات المختلفة وذلك فى الثلاثينات من عمره . وقد انتهت هذه المجهودات بعدد من الكشوف التاريخية التى حملته الى منصب مدير الأكاديمية الملكية للتاريخ وخلقت صفحة جديدة فى المعرفة بتاريخ اسبانيا بل وتاريخ الحضارة العربية الاسلامية .

أورورا كانو تحدثت عن أن جيلها هو جيل تلامذة جارثيا جومث وأن هذا الجيل هو حلقة الوصل بين جيل جومث والأجيال القادمة ، وأن هذا الجيل مهتم بالعالم العربى المعاصر دون نسيان ماضى هذا العالم ، الذى عرف به جارثيا جومث عبر كتابته الجميلة ولغته المتميزة . ولقد كانت كلمتها طوال الوقت تعبيرا عن مشاعر قسم اللغة العربية بكلية آداب الأوتونوما

ميجيل كروث هرناندث . يتحدث كشاهد عيان لعملية تأسيس المعهد الاسبانى العربى للثقافة بهدف توثيق العلاقات بين اسبانيا والعالم العربى فى لحظات كانت العلاقات بين اسبانيا ومراكش حرجة والحياة السياسية الاسبانية فى موقف بالغ الصعوبة . ان أهمية خلق هذا المعهد التى تصورها وعرفها الأستاذ جومث تتركز فى كون أن الأستاذ كان الدافع وراء تأسيسه والرجل الذى يذيب الصعوبات من طريق بدء الحياة لهذه المؤسسة ذات الأهمية البالغة والحيوية الفائقة من النواحى الدبلوماسية والأكاديمية فى نفس الوقت لتكوين جيل من المستعربين والعرب المتخصصين فى الدراسات الاسبانية .

أما كلمة بيدرو شالميتا فهى كلمة تطرح تصورات عن القرن العشرين الذى تميز عن القرن التاسع عشر بميلاد مؤسسات تموت لصالح مؤسسات أخرى . وميلاد المعهد الاسبانى العربى للثقافة ومجلة الأندلس على يد جارثيا جومث ثم موتهما فى حياته لا يعنى شيئا سوى تلك التغيرات السريعة لهذا العصر أما جهد جارثيا جومث العلمى فهو شىء لا علاقة له بتلك التغيرات لأن منتجات العلم خالدة ونحن الآن غارقون فى العواطف والوقت وحده بعيداً عن العواطف سوف يكشف عن قيمة هذا الجهد العلمى لجارثيا جومث بطريقة بعيدة عن العاطفة لتضع هذا الجهد فى مكانه بعيدا عن الدور العام غير العادى الذى قام به جارثيا جومث .

أما الأستاذ خوسيه ماريا فورنياس فقد قص أثر حياة دون اميليو فى نزهة جميلة وعن تطور الدراسات العربية فى مدينة الأغراء غرناطة . رسم مخطوط

لقصة حب عجيبة دائما فى حالة استجابة بين الأستـاذ وغرناطة المحبوبة التى كانت تستجيب دائما لهذه الصلة التى تربطه بها .

هو : الجامعة ، مدرسة الدراسات العربية ، مجلة الأندلس ؛

هى : الكرسى الجامعى جارثيا جومث ، درجة الدكتوراه الفخرية .

المتحدث شاهد على هذه العلاقة حب استطاع الأستاذ أن ينشره كتابة وبحثا علميا وذلك فى جهده التدريسى البديع .

أما ألبارو جالميث دى فوينتس فقد قام بعبور جميـل لأعمال جارثيا جومث . وتفرغ هذا الأستاذ لاعادة الحياة للشعر الغنـائى الأندلسى وللانتـاج الفنى النثرى فى الأندلس . والمحصول الذى خرجنـا به من كنوز تراث جارثيا جومث انتهى بتعريفنا بالقيمة العظيمة لما هو أندلسى . وقد أدت هذه المعرفة فيما بعد الى تطور للأدب الاسبانى متأثرا بالانتاج الأدبى الأندلسى والعربى . والحساسية الفنية لهذا الأستاذ بجانب دقته العلمية كانت وراء اهدائنا القيمة الاكثر رفعة لهذا الأدب .

والأستاذة سوليداد خيبيرت من جانبها فى عملية توفيقية شخصية وتعايشيه ركزت على القيمة الرفيعة للمجهود التدريسى للأستاذ جومث ؛ وتحدثت عن العطاء اللامع والمشوق لهذا الأستاذ والذى انتهى بترك أثر عميق : عرفـان بالجميل ، اعجاب ، عاطفــة . هذا الأثــر تحول الى قلاع متينــة لمدرسة جارثيــا جومث الاستشراقية والأدبية .

أما المستشرق الكبير فرناندو دى لاجرانخا فقد قدم تاريخا علميـا لأستاذه وكيف لمـع منذ شبابه وخاصة فى مجال الدراسات الأدبية المقارنة والكشف عن روح شعرية جديدة عبر نشره ودراسته للأشعار الأندلسية التى لم تكن معروفة حتى قـام بنشرها وترجمتها . وفى هذا المجـال تحدث عن دوره فى الكشف عن شخصية الأدب الأندلسى المتميزة والـذى كان يدرس فى المشرق العربى على أنه امتداد للأدب العباسى . كما لم يكن له مكان فى اسبانيا . ولم تكن تلك الترجمة لهذه الأشعار كما يقول لاجرانخا الا الاعلان عن برنامج كامـل لحياة فى البحث العلمى فى هذا المجال حيث تعددت ترجماته لهذا الشعر الأندلسى وتوجه بترجمته البديعة طوق الحمامة ثم تجاوز الأمر من التعريف بالشعر الاندلسى الى التعريف بالشعر العربى فى كتابه (خمسة شعراء مسلمين) وهكذا عرفت اسبانيا المتنبى وعدة من الشعراء العرب . وخلال ذلك العمل العلمى كان أستاذا لامعـا يجذب التلاميذ ويفتح آفاقا جديدة لباحثين جدد .

ومنذ كتـابه المنشور ١٩٢٩ « نص عربى أندلسى لملحمة الاسكنـدر » حتى تحقيقه لديوان ابن قزمان حظيت غرناطة بأكبر جهد وحب منه وأيضا بعدد من الكتب منها « بؤرة ضوء قديم حول الحمراء » و « قصائد على جدران ونوافير الحمراء » وهكذا وصل جارثيا جومث الى قمة الاستعراب وملأ الدنيا اعجابا وترك خلفه عددا كبيرا من الكتب والأبحاث العلمية والتلاميذ اللامعين وأكثر من ذلك عالما من الحب والوفاق .

رافائيل لابيزا ميلجار تحدث عن علاقته بجارثيا جومث التى لم ينفصل فيها عنه الا فى آخر ثلاث سنوات بسبب الشيخوخة التى وصل اليها الرجلان وكلاهما عضو من جيـل ١٩٢٧ الذى يضم رجـالا من أمثـال (خيراردو ديـيجو) و (فيديركو جارثيا لوركا) و (رافائيل البيرتى) و (لويس سيرنودا) و (مانويل التولاغيرى) هذا الجيل ضم أساتذة أيضا فى فقه اللغة مثل (أمادو ألونسو) و (داماسو ألونسو) .

تحدث لابيزا عن انتمائه الى هذا الجيل ثم انتمائه الى جيل ١٩٣٦ . ثم عندما سافر شيخ المؤرخين الاسبان أميريكو كاسترو استبدلته جامعة مدريد بمحاضر شاب أثار دهشة الجميع لأنه مستعرب وليس متخصصا فى تاريخ اللغة الاسبانية ــ المادة التى كان يدرسها كاسترو ــ هذا المحاضر حديث الحصول على الدكتوراه التى أصلت علاقة ابن طفيل وتأثيره فى الفلسفة التعليمية الاسبانية كان بارعا فى الكشف عن جذور الكلمـات والتعبيرات الاسبـانية التى من أصـل عربى التى ظهرت فى المستندات اللاتينية فى العصر الوسيط لشبه الجزيرة الايبيرية . ثم انتقل المتحدث الى الحديث عن ترجمته للأشعار الاندلسية وتأثيرها الفائق فى الشعراء الاسبان الذين اكتشفوا الأدب العربى المجهول والذى كان مختبئا فى ركن قصى من العـالم بصوره الدقيقة الرقيقة . وينهى المتحدث حديثه الطويل عن أعمـال جارثيا جومث بالحديث عن عشقه لغرناطة الذى يظهر فى كتابه « مقعد المسلم » وذلك عندما اهدى هذا الكتاب الى غرناطة بهذه العبارات :

الى غرنـاطة
غرناطتى والى الأبـد
المدينة التى أحببتها أكثر
والتى فيها أرغب فى انتظار نفخة الصور

وفى كلمة أندريس مارتينث لوركا تحدث هذا الفيلسوف بلغة شعرية تعطى بعدا جماليا للفلسفة . وقد بدأ هذا الحديث المقسم الى أقسام بعنوان « البذرة الخالدة للكتابة » وتحت هذا العنوان تحدث عن الأسطورة المصرية للاله توت الذى قدم الى

آمون ما اكتشفه من أرقام وحساب وهندسة وفلك وكتابة لكى يوزعها على الشعب ويقول توت هذه المعرفة ستجعل المصريين أكثر الناس حكمة وذاكرة ، أن الكتابة قد اخترعت كدواء للذاكرة وللحكمة . وهكذا كانت ترجمة جارثيا جومث لطوق الحمامة لابن حزم قد جعلت مؤلفها صاحبا لا ينفصل لآلاف القراء بينما كان فى حياته مطاردا ومنفيـا ولم تكن كتـابته تعبر عتبة بابه كما يحكى ابن حيان عن سنوات ابن حزم الأخيرة . ان العبقرية الشعرية والاستاذية اللغوية لجارثيـا جومث قد أعطيا حياة جديدة الى كتابة قديمة محولا لها الى بذرة خالدة .

ثم بعد ذلك يأتى عنـوان جديد عن أستاذيه أسين بالاثيوس التى أسفرت عن انشاء مجلة الاندلس عام ١٩٣٣ باداريتهما والتى انتهت بأن أدارها جومث وحده بموت أستاذه عـام ١٩٤٤ ثم يأتى عنوان ثـالث عن صداقته مع أورتيجا اى جاسيت فيلسوف اسبانيا الأكبر وقد أخلص جارثيا جومث لهذه الصداقة وظل يقدم أعمدتها العشرة الى تلاميذه :

العمل ، تنقيه التراث ، الوضوح ، التسامح ، الاعتزاز بالنفس ، الكمـال ، التعايش (الانفتاح على الاخر) ، الايثار ، المثالية .

ثم يأتى العنوان الرابع دون اميليو جارثيا جومث كمثقف وكاتب وفيها يعرض أسلوب جارثيا جومث الشاعرى والذى لا يفارق العلمية البحتة فى نفس الوقت ، وكيف أن هذا الرجل قد غرس روحه الاندلسية فى شعراء عظام عرفهم وعرفوه مثل جارثيا لوركا ورافائيل البيرتى وبيثنتى اليساندرى .

ان كتـابة جارثيا جومث النثرية شعر محض فهو يصف جنة العريف بـأنها بساط فارسى مفروش على بستان زيتون رمادى .

والعنوان الأخير الأندلس وعشق دائم وفيه يحدثنا عن عشقه شخصيا للاندلس بعد أن عرفها عبر جومث الذى تواصل مع شعبها بعد أن حولها الى كتابة جميلة .

وينهى حديثه بأشعار تتحدث عن خلود كلمات جومث فى الروح الاسبانية .

أما كلمة بيدرو مارتينث منتابث فقد تحدثت عن جارثيا جومث كأستاذ جامعى فقد استهل كلمته بالحديث عن أن الذاكرة بالنسبة له صديق دائم وأن الأستاذية الاستثنائية لجارثيا جومث ما زالت شيئـا بالنسبة له غير قابـل للمناقشة أو الغياب عن الذاكرة .

ثم أضاف عن دوره فى جعل الاستعراب ليس فحسب بحثا علميا عميقا وانما عمل خلاق كما أضاف اليه الأدب والفكر العربى الحديث . كما أن رؤيتـه لمصر ولكل ما هو مصرى ومشاعره نحو ذلك بـدت للمتحدث جذابـة كما أن التجربة الشخصية للمتحدث بعد ذلك جعلته يدرك معنى ذلك أكثر .

ثم انتقـل المتحدث بلغته العاطفية والتى لا تغـادر الموضوعية رغم ذلك الى الحديث أن جارثيا جومث كأستاذ جامعى غير معروف الا فى أقل القليل ودوره

الأستاذى فى الجامعة قليل التعريف به وذلك بسبب اتساع جهوده العلمية ومواهبه ككاتب التى غطت على أستاذ أصيل وكأن الاستاذية وراثة فى دمه . وقد كان كأستاذ يتمتع بسلطة وليس بتسلط .

ثم أضاف المتحدث أنه قد عرف جارثيا جومث فى الجامعة فى ظروف لم تكن فيها الجامعة المؤسسة التى يحلم بها وليس ذلك بسبب النظام الذى كان سائدا فحسب ويقصد نظام فرانكو الذى أعطى صورته لكل المؤسسات وانما لأن الجامعة التى يحلم بها لم تتحقق بعد وطبقا لاتجاهات الرياح فانها لن تتحقق أبدا .

قد عرف فى تلك الجامعة شخصيات منها أستاذه جارثيا جومث والذى كان أستاذا بكل الصدارة وفى الصدارة وبمنهجية لا يغادرها أبدا ومع ذلك فقد كان تدريسه بهذه المنهجية الصارمة مقبولا ومحبوبا . وكأستاذ لم يكن همه اصطياد التلامذة بل كان يجذبهم بدروسه ويكتشف فيهم نبوغهم ثم يرعاهم بعلمه ويفتنهم بدروسه التى كان رغم تلقائيته فى المنهجية الفيلولوجية يفضل عليها النص الأدبى والذى برع فى تحليله وتقديمه .

وختم كلمته بنص شعرى لقصيدة لأدونيس تتحدث عن بيت وحيد فى السماء والأرض هنا بين البحر المتوسط وجبل غرناطة المغطى بالثلج الذى يصافح الأمواج ؛ انه بيت جارثيا جومث .

ثم يتحدث عن المكان النهائى الذى يسكنه الآن دون اميليو فى الأرض التى أحبها تلك المدينة النادرة التى كانت بالنسبة له بوابة العالم : غرناطة .

وفى مداخلة محمود على مكى عميد الأندلسيات فى العالم العربى ومن أول جيل لتلاميذ جارثيا جومث المصريين يقص أثر حيوية الانشغال بالدراسات الاسبانية العربية وجذورها الوراثية ويقصد بذلك الدراسات الاسبانية عند العرب والعربية عند الاسبان . وذلك منذ جيانجس الى كوديرا ، ومن كوديرا الى خوليان ريبيرا وبالاثيوس . ومن ثم فى هذه السلسلة من التواصل يأتى جارثيا جومث . دون اميليو بحسه العبقرى لم يترجم فقط الشعر الى كلمات اسبانية ولكن الى ميزان شعرى اسبانى ولعله فعل نفس الشىء فى كل ما يتعلق بمناحى الحضارة الاندلسية . تنتسب نهضة الدراسات الاستعرابية فى اسبانيا الى هذا الرجل الذى شكل مدرسة حملت فى تسارع الثقافة الاندلسية والعربية الى الوجود فى اسبانيا . وبالتوازى مع ذلك يقص الدكتور مكى أثر الدراسات الاندلسية والاسبانية فى مصر . نقطة الانطلاق : الحوارات بين اميليو جارثيا جومث وعميد الأدب العربى طه حسين والتى تنتهى بخلق المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد . وقد شكل طه حسين هذا الأعمى البصير جيلا من المتخصصين فى الاسبانيات . وهذا النموذج المصرى تم نسخه فى كل البلاد العربية . وقد كان هذا الجيل المصرى

أول مجموعة من البـاحثين المصريين الذين استقبلهم المعهد المصرى للدراسات الاسلامية وأشرف عليهم علميا فى اسبانيا جارثيا جومث .

ومداخلة السفير ألفونسو دى لاسيرنا تتذكر بعض الكلمات التى قالها جارثيا جومث حول الأساتذة الكبـار للاستعراب الاسبانى : « جايانجس كان الحقـل المنـاسب ؛ كوديرا ، كان الجذر المغزى ؛ وريبيرا كـان ساق الشجرة الدقيق التكوين ؛ وأسين بالاثيوس كـان الزهرة والثمرة » . ويضيف ألفـونسو : ان جارثيا جومث ابن وصغير وحفيد الحفيد لهؤلاء الحكماء ان جارثيا جومث بهذا المعنى فى رأى المتحدث هو البذرة التى انطلقت فى أرض خصبة من تلك الشجرة . وقـد نجمت عن هذه البذرة أشجـار كثيرة تمتد فى نسبهـا الى تلك الشجـرة البطريركية العظيمة .

وفرناندو بالديراما بعد اشارته الى مجموعة من الطرائف حول حياة الأستاذ جومث فى اللحظة التى عرف فيها دون اميليو فى مراكش وفى لقاءات أخرى بهذا البلد أو فى غرناطة أو مدريد ، يضيف المتحدث باضاءة مجموعة من الفقرات من كتابات جارثيا جومث لاستحضاره فى هذا التكريم وتتعلق هذه الفقرات باعتزاز أسين بالاثيوس واحالته للمعاش ثم عن رحيل جونثاليث بالنثيا وأخيرا عن رحيل أسين بالاثيوس نفسه . وفى هذه الفقرات يكشف عن انسانية جومث وعاطفيته وقدرته على نقل هذه المشاعر الى الكتابة . وهو دائما قريب من أساتذته وأصدقائه ملىء بالعرفان لهم .

فرناندو بالديراما يقدم بعد ذلك تقريرا زمنيـا لحياة الاستاذ جومث منـذ الأربعينيات ومستخرجة فى بعضها من بعض أعمال السيرة الذاتية لجومث نفسه. على سبيل المثال :

١ – عضو فى الأكاديمية الملكية الاسبانية للتاريخ ١٩٤٢ .

٢ – عضو فى الأكاديمية الملكية الاسبانية للغة ١٩٤٥ .

٣ – دكتوراه فخرية من جامعة بورديوس ١٩٥٠ .

٤ – زيارة لمصر كممنوح ودارس بجانب زيارات متعددة كممثـل للحكومة الاسبانية وملحق ثقافى بكثير من البلاد العربية عبر الأربعينيات والخمسينيات .

وتستمر هذه السيرة لحيـاة جارثيا جومث حتى تعيينه رئيسا للأكـاديمية الملكية الاسبانية للتاريخ عام ١٩٩٢ .

وتناقش مداخلة خواكين بالبيه أعمال جارثيا جومث بأسلوب علمى ونقدى دون أن يترك رغم ذلك النزعة العاطفية التى تربطه بأستاذه والتى جعلته أيضا يتحدث عن عواطف هذا الاستاذ تجاه الاندلس وحضارتها وتجاه مصر والمصريين

أيضا تجـاه المعهد المصرى للدراسات الاسلامية . وتتمثل هذه العـاطفة تجاه المعهد فى اصدار كتابين عزيزين عليه لأنهما حول عشقه لغرناطة فى هذا المعهد . هذان الكتابان هما «بؤرة نور قديم على قصر الحمراء» و «قصائد وأشعار على جدران ونوافير الحمراء» . وفيما وراء العلمى والاشكـالى الذى تثيره أعمال هذا الأستاذ العظيم يظهر جمال فنى أدبى بشكل واضح لا يقبل الانكار ..

ويلتقط الأستاذ بالبيه بعض هذه الكلمات لأسين بالاثيوس التى توجهت الى جارثيا جومث : «يمتلك تلك الأستاذية اللماحة والموحية ، وبالنسبة لمـا وهب كعلامة وكمحلل فيلولوجى قد جمعت العناية الالهية فى روحه القدرات الاستثنائية العلمية مختلطة بقدرات الشعر» .

الأستاذ بالبيه يفتح فى كلمته فضاء لعلاقته بدون اميليو الذى تلقى على يديه أول درس فى اللغة العربية ومنذ تلك اللحظة كسب الاستـاذ اعجابه وعاطفته . وأنهى حديثه بامتداح فضيلتى الصداقة والولاء فى شخص هذا الأستاذ الغنى بـالقيم .

والأستاذ الجليل خوان بيرنيت يتحدث فى اخلاص بديع عن دور جارثيا جومث فى فتح الأبواب أمام فهم اللغة العربية من ناحية وشعرها من ناحية أخرى . الأمر الذى كان بالغ الصعوبة فى النصف الاول من هذا القرن ثم يتحدث عن التعاون الوثيق الذى تم بين أساتذة اللغة العربية فى برشلونة ومدريد ويختم كلمته بحديث عن الصداقة التى جمعته وجارثيا جومث حتى أن الأخير هو الذى القى كلمـة الرد على كلمة بيرنيت التى دشن بها تعيينه عضوا فى الأكاديمية الملكية للتاريخ .

الأستاذة ماريا خيسوس بيجيرا فقـد تحدثت عن استعارات عربية فى الأدب الاسبانى كانت نتيجة لترجمات جارثيا جومث الجميلة للأشعار الاندلسية تلك الترجمات التى نالت اعجابا شديدا واستوحاها الشعراء الاسبان فالأستاذ جومث يترجم الشعر الى شعر وقد استقبل جيل ١٩٢٧ هذه الترجمات بترحاب شديد . ثم ذكرت بعض تعليقات هذا الجيل . ثم تدخل مباشرة فى موضوعها الذى ذكرت أنها ستدرس الاستعارات ذات الأصل العربى فى أشعار الشاعر (رامون جومث دى لاسيرنا) وقد بـدأ جارثيا جومث نفسه فى اكتشاف وجود الاستعـارات فى شعر هذا الشاعر والمأخوذة بشكـل مباشر من ترجمات جارثيـا جومث للشعر الأندلسى دون اشارة الى ذلك . والحقيقة أن هذه الاستعارات أوسع مما اكتشفه جارثيا جومث فى البداية . ان هذا الشاعر الذى أنشأ نوعا أدبيا جديدا فى الشعر الغنائى وأطلق عليه (جريجيريا) وهى كلمة تحمل تورية تشير الى الحياة اليومية والى اللغة العربية فى نفس الوقت مما يؤكد تصور استيحاء هذا الشاعر فى تلك القصائد للشعر العربى الاندلسى من ناحية والحياة اليومية الاسبانية من ناحية

أخرى بل لعله ربط بينهما ، (هذه الفكرة لم ترد فى حديث الاستاذة ماريا خيسوس وهى من تصور المحرر) وتنهى الأستاذة الدكتورة حديثها بدراسة ممتازة وبديعة لعدد من الاستعارات التى توردها تحت ميكروسكوب التحليل مشيرة الى القيمة الفنية الخالدة فى الاشعار الاندلسية والتى ما زالت استعاراتها محفوظة ومقيمة ومتذوقة ومستوحاة .

والسفير رامون بيبانوبيا فقد تحدث عن ذكرياته كدبلوماسى شاب فى صحبة جارثيا جومث فى سفارته الأولى لاسبـانيا فى العالم العربى فقـد عين سفيراً فى العراق وقد وصل فى يوم قيام ثورة العراق التى قادها عبد الكريم قاسم والتى اسقطت النظـام الملكى واقامت الجمهورية ويكشف السفير عن صلابـة جارثيا جومث فى هذا الموقف العصيب وعن كثير من الأسرار الدبلوماسية حول موقف اسبانيا فى ذلك الوقت من ثورة العراق وأيضا من ثورة عبد الناصر فى القاهرة والسفير يتحدث كشاهد عيان وما كشفه من أسرار على مسئوليته الشخصية لأن مثل هذه المسائل تحتاج للتوثيق التاريخى .

وتتضمن مداخلة اميليو دى سانتياجو حشدا بديعا من الاحاسيس الشاعرية نحو أستاذه وما يمثله هذا الاستاذ من قيم وتخصص .

اميليو دى سانتياجو سيمون الذى يشغل الآن الكرسى الجامعى الذى يحمل اسم اميليو جارثيا جومث فى جامعة غرناطة يتحدث عن نموذج سحرى لرجـل جعله فى طفولته لا يريد شيئـا فى الوجود غير أن يصير جارثيـا جومث آخر . وبالتصاق جارثيا جومث بأسرة اميليو دى سانتياجو فى غرناطة تلك المدينة التى يجمعهما الانتمـاء اليها والتى هى بالنسبة لجارثيـا جومث تلك المـدينة التى استدعتها موسيقى فايا وشعر لوركا الى خيـاله . وكان جارثيا جومث بالفعـل جزءا من هذه المدينة متغمسا فى الموسيقى والشعر اللذين كانا غرناطة بالنسبة له.

ويتقدم الزمن يصل الى الاعتراف : « جارثيا جومث ، بـالنسبة لى ، عبر تلك الصداقة بين التلميذ وأستاذه والتى تعنى قراءة التلميذ لكتب أستاذه ، وهكذا كنت فى اقتراب مستمر من كائن ملىء بالحيوية والحياة ، ومن شخص كان ينبض داخل الشعر » .

كان جومث شاعر وعلامة . فنان غرناطة مثيرة للخيـال ، يحرر من سجنها أوراقا حجرية وجصية ١

اميليو جارثيا جومث كـان يسمع صوت تلك المـدينة الاكثر حميمية وكـان يستخرجه من سجنها فى غنائية محلولة الشعر لكنها شفافة .

١ ربما يشير اميليو دى سانتياجو الى جدران الحمراء الهشة والخالدة فى نفس الوقت كـأنها أوراق حجرية وجصية .

ودون بدرو لايين انترالغو تحدث حديثا طويلا ومفيدا عن جيل ١٩٢٧ الذى ينتمى اليه جارثيا جومث وعدد من العمالقة الذين تلقوا دعوة فيلسوف اسبانيا « أورتيجا اى جاسيت » بالعمل كــل فى حقله « علم ــ فن ــ أدب ــ انسانيات .. الخ » فى بهجة للكشف عن ثقافة اسبانيا الغنية ولبناء مستقبل أفضل لوطنهم . وقــد انطلق جارثيا جومث فى مجــال التراث العربى والاسلامى فى سلم جامعى وأكاديمى بدأ فى غرناطة وامتد عدة عقود مليئة بالخلق والابداع الذى صاحب بشكل غير عادى بحوثه العلمية شديدة التدقيق .

سليمان العطــار